لائحة القومي العربي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 93

01 أيار 2024

عدد خاص بمناسبة 10 سنوات من طلقات التنوير

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 93

01 أيار 2024

محتويات العدد 93 من مجلة طلقة تنوير:

- بمناسبة عشر سنوات على "طلقة تنوير" الأولى، وروابط 5 كتب لناجي علوش.....02
- بالعروبة نحيا / بشار شخاترة.....04
- زمن سقوط الأقنعة واللعب على المكشوف/ كريمة الروبي.....07
- تحولات تاريخية نعيشها في زماننا / توفيق شومر.....10
- هل ينجح الاحتلال الصهيوني بالإبادة الثقافية للهوية العربية الفلسطينية؟/ ميادة إبراهيم رزوق.....15
- إدوارد سعيد: جزرٌ في زمن المد الثوري / فارس سعادة.....22
- بلقنة الولايات المتحدة: خيار استراتيجي للدول المناهضة للإمبريالية الأمريكية / إبراهيم حرشاوي.....28
- العروبة والمسيحية والعرب المسيحيون: الصلات الأولى (الجزء 1) / إبراهيم علوش.....33
- من تراث الفكر القومي: "ثورية القومية العربية"، عبد الله عبد الدايم، 1960.....43
- قصيدة العدد: أقوال اليمامة – أمل دنقل.....49
- كاريكاتور العدد: نبض القلب.....52

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

بمناسبة عشر سنوات على "طلقة تنوير" الأولى

أطلقت "لائحة القومي العربي" قبل عشر سنوات "طلقة تنوير" الأولى كمجلةٍ إلكترونية، دفاعاً عن العروبة والفكرة الوحدوية، وانتصاراً لبوصلة فلسطين في توهان ما يسمى "الربيع العربي"، بهذه الافتتاحية:

عندما تُستباح الضاد بجبروت الفكرة البلهاء، تصبح الكلمة جبهةً لا تقل اشتعالاً عن جبهة الرصاص المسبوك من جبل الشعانبي في تونس إلى جبل راس في اليمن، فيصطك البارود الأزرق بزيف الشيطان التلمودي المتعمم بأسوأ ما في الاستشراق... "إسرائيلياتٌ" تتلطى كأصالةٍ تنتج رُهاب الإسلام، و"إسرائيلياتٌ" تتلطى كحداثةٍ تنتج رُهاب الضاد... تغترب الضاد، ترتد الضاد... فهذا عدوٌ يمارس استعلاءه "الحضاري" علينا بجهلنا المفتعل بتمويله وحضانته، وذاك عدوٌ يمارس استعلاءه "الحضاري" علينا بغربتنا المفتعلة بتمويله وحضانته... والضاد بين عدوين، بل عدوٍ واحدٍ، لا تجد ولياً ولا نصيرا... تهيم البوصلة وتصير الضادُ فلسطين... تضيع اللحظةُ العربية وتشتعل الكلماتُ زبداً أجوفَ كالغول والعنقاء والخلِ الوفي... لكنَ "البدوي الضالع بالهجرات" ينسحق ولا يفنى... "الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"... لا تموت الروحُ، بل تتغيرُ وتتحولُ لما هو أجلى... والضادُ روحٌ لا أجمل ولا أحلى... تستطيرُ في النيرانِ لتُشعلَ التاريخَ نوراً ودِفلى... نحن حماة الضاد مشروعاً تجلى... قوميون جذريون نتوق لما هو أعلى... وإذ تطيشُ الطلقاتُ نخرجُ كطلقةِ تنويرٍ في الليلةِ الكَحلى.

واليوم، بعد عشر سنوات من إطلاق "الطلقة" الأولى، نستمر بالصدور دورياً، كجهدٍ تطوعي مئة بالمئة، بهدف تقديم فكرٍ وثقافةٍ أصيلين يجددان الخط القومي روحاً ومنهجاً بما يلائم ظروف واقعنا العربي المعاصر والتحولات العالمية في القرن الواحد والعشرين.

وإذ ثابرت مجلة "طلقة تنوير" على الاستمرار عبر كل هذه السنوات وتقلباتها، فإننا نترك لقرائها أن يحكموا إن كانت قد تمكنت من إثبات وجودها، وتطوير أدائها، وإضاءة منارةٍ لبث الفكر القومي الجذري، وتشييد حصنٍ ثقافي متميزٍ للمشروع القومي، وبلورة رؤىً نظريةٍ مجددةٍ لتطورات عالمنا من منظورٍ عروبي، ومن الحفاظ على التزامها المبدئي بالثوابت القومية وثقافة المقاومة ونهجها.

وإذ تمكنا من مواصلة إطلاق طلقاتنا التنويرية كل هذه السنوات، فإنما يعود الفضل في ذلك، بعد الله، إلى الجهود المخلصة لكتاب المجلة ومحرريها ومصمميها، وإلى قرائها ومتابعيها الذين ازدادوا عدداً عبر السنوات.

لكل هؤلاء نقدم أسمى آيات الشكر والتقدير، ولهم جميعاً، وللقراء الجدد، نطلق هذا العدد الخاص من مجلة "طلقة تنوير" حافلاً بباقةً من المواد النوعية والقراءات المعمقة، كما تجدون في فهرس المحتويات.

كما نقدم أدناه روابط 5 كتب خارجة عن الطبع للمفكر القومي الراحل ناجي علوش جرى إنقاذها من مكتبته التي كانت في منزل الشاعر الراحل خالد أبو خالد، في الطابق الأرضي للمبنى المتألف من 4 طبقات والذي جرى تدميره بالكامل في حي المزة في دمشق، في قصف صهيوني غاشم، يوم 2024/1/20، وتلك الكتب التي يمكن تحميلها إلكترونياً الآن هي:

أ – الحركة القومية العربية: نشوؤها، تطورها، اتجاهاتها

https://www.freearabvoice.org/?p=8638

ب – نحو ثورة فلسطينية جديدة

https://www.freearabvoice.org/?p=8737

جـ - حول الحرب الأهلية في لبنان

https://www.freearabvoice.org/?p=8733

د – بدر شاكر السياب، سيرة شخصية

https://www.freearabvoice.org/?p=8729

هـ - من قضايا التجديد والالتزام في الأدب العربي المعاصر

https://www.freearabvoice.org/?p=8724

وكل "طلقة تنوير" وأنتم بخير.

رئيس التحرير

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

بالعروبة نحيا

بشار شخاترة

بمناسبة إتمام طلقة تنوير عقدها الأول فإن من الواجب أن نتوقف عند هذه المناسبة في سياق الأحداث القومية التي جرت خلال هذه العشرية وفي سياق الحدث الراهن الأبرز وهو معركة "طوفان الأقصى"، وهي بدون مبالغة أهم حدث راهن على الساحة الدولية، ونقطة تحول مفصلية في مسار الصراع العربي-الصهيوني.

فطلقة تنوير، كما دأبت، ولها من اسمها نصيب، كانت على الدوام طلقة كما أردناها في مواجهة مشاريع التجزئة والتفكيك، وفي مواجهة قوى الاستكبار العالمي، والتي لا تدخر جهداً للنيل من الأمة العربية، ناهيكم عن أنها كانت، وفي كل حدث مفصلي طيلة هذا العقد، منبراً منافحاً عن حق هذه الأمة بالحرية والاستقلال والوحدة وبناء دولتها القومية، فهذا أسمى وأجل هدف نحمله ونرمي إليه. فهذا وهي طلقة، وأما أنها تنوير، فهي ما حادت عن رفع مشعل الوعي القومي على صفحاتها تبشر بمستقبل عربي أفضل، وتنادي بالوحدة سبيلاً وخلاصاً من حالة الهوان التي تنوء بها أمة العرب.

لقد ولدت طلقة تنوير من رحم الهجمة الربيعية العبرية على الأمة العربية، وهي اليوم، بعد مرور عشر سنوات على إطلاق تنويرها الأول، في ظل الزلزال الكبير الذي أحدثه "طوفان الأقصى" المجيد في السابع من تشرين الأول / أكتوبر، تبرهن الوقائع أن الخيار القومي كان وما زال راهناً وضرورة لا بديل عنها. فالعروبة تتمسك بكل شبر من الأرض وبكل عربي أينما حل، وإنها تئن من استبداد أنظمة التجزئة التي برهنت الحوادث بعد انبلاج فجر الأقصى أن تلك الأنظمة هي جزء من العدوان على العروبة، وأن هذه الأنظمة شريك للإمبريالية الغربية (وإسرائيلها) في عدائها للأمة العربية، وأنها تمارس ذات العدوان على العروبة كما يمارس العدو الصهيوني والغرب عدوانه على فلسطين عموماً وغزة خصوصاً في إطار حرب الاجتثاث التي تدور رحاها في غزة.

وأما السؤال الذي يتردد كل يوم: أين العروبة والعرب؟ فنجيب أنهم تحت العدوان كما هي غزة، لكن غزة هيأت لها ظروف الحصار- وغياب السلطة العميلة - الأرضية التي ترفع فيها السلاح في وجه العدو، وأن العرب عموماً يفتقدون إلى التنظيم الذي يحمل مشعل الحرية الذي به يواجهون أعداء الداخل والخارج. وهنا مربط الفرس وعنان الحل، فما يغيب عن ساحة الحل هو التنظيم القومي الذي يفتح الباب أمام طاقات هذه الأمة نحو التحرر والوحدة، وغدت المزاودة على عروبتنا وعلى مشروعها أداةً للنيل منها ورميها بالعدمية والعجز وافتقاد الجدوى منها ومن المطالبة بها. وبين مصدقٍ لهذه الفرية على

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

العروبة وبين متقصدٍ للتهجم عليها يغيب البيان بأن جوهر المعضلة قائم منذ أن تقاسمت الدول الاستعمارية هذه الأمة وشتت شملها واختلقت دولاً إقليمية سلمتها لوكلائها بديلاً عن دولتها الواحدة، الدولة العربية الواحدة من المحيط إلى الخليج، الدولة الطبيعية كما هو حال أمم الدنيا.

لقد تم افتعال التناقض بين العروبة والإسلام لتشتيت الوعي، ووضع الإسلام في مواجهة العروبة في وضع يحار فيه العاقل، كيف لعربي أن يتناقض مع ذاته كعربي وبين ديانته كمسلم؟! ومن ثم وصلاً إلى تناقضه في إسلامه بين مسلم سني ومسلم شيعي، وهم الذين يدينون لربٍ واحدٍ ويؤمنون بذات الرسالة المحمدية ويتلون ذات القرآن، إمعاناً في تمزيق الوعي، فما كان ضرنا إن بقينا على إيماننا بالإسلام ديناً وبعروبتنا هوية وثقافة، ولكنه عناد المنافقين والمتكسبين من أرباب العمائم الذين وجدوا من ينفق عليهم ويفتح لهم منابر المساجد وخزائن المال ومنابر الإعلام يكيلون للعروبة من التهم والنقائص من وحي الصهاينة وفقه المستشرقين ما لم ينزل الله به من سلطان لا في كتابه ولا في سنة نبيه.

لم يعِ أولئك أن النبي (ص) أرضاه الله بقبلة يرضاها بأن يمم شطر المسجد الحرام الذي كانت تملؤه الأوثان ويغشى مكة الشرك، فقد كره أقاويل اليهود في استقباله للمسجد الأقصى، وليس كرهاً في بيت المقدس أو في مسجدها الذي بدأ رسالته بها عندما أسري به اليها، بيت المقدس بوابة السماء التي عرج منها النبي (ص) إلى السماوات للقاء ربه، ولكنه بعد أن استقر بالعقيدة بأن القدس صنو مكة، وأن مسجدها ثالث الحرمين - ربطاً بالعقيدة لا تُفَك عراه – أدرك عليه الصلاة والسلام منزلة العروبة من الإسلام، فيمم وجهه شطر المسجد الحرام الذي كانت تقدسه العرب دون غيرهم من الأمم بأمر من السماء، فقد كان عربياً في هويته مسلماً لله في دينه لا يشوب ذلك شائبة وقد أقره على ذلك ربه.

كما لم يدرك أولئك المتأسلمون أن لله سنناً يجريها ونواميس لا تبطل، فالقدس لم يحررها النبي في حياته، وإن كان قد أعد إليها جيش أسامة لكن المشيئة اقتضت أن يلحق بربه، وإنما حررها من أتى بعده، بعد أن استقرت الدولة وأقامت صرحها في الجزيرة العربية. من ينظر إلى تناقض العروبة والإسلام المزعوم لا يدرك إنسانية الهوية بالنسبة للإنسان والتصاقها به مهما كانت تلك الهوية، ولا يدرك وجدانية الإيمان وغريزيته، فهذه لا تنفي تلك، فإسلامك يصح بأي أرومة انتميت إليها، ولكن شعائرك لا تصح إلا بالعربية. أما الهوية والانتماء للجماعة فلا يخرجك منها دين أو ملة، فبلال بقي حبشياً وصهيب بقي رومياً، ولم ينتقص من إيمانهم وإسلامهم شيء كما لم ينتقص من نبوة محمد أنه عربي، فإذاً فيمَ هذا الافتعال؟

وعوداً على بدء، استبيحت فلسطين وكل ديار العرب في هذا العصر، وغالبية العرب مسلمة وتقيم الشعائر صباح مساء، فهل هذا انتقاص من الدين أو مثلبة، أم أن غياب السبب أدى إلى هذه النتيجة؟ فإذا نظرنا وجدنا أن الغائب الحاضر هو دولة الأمة، والتي عندما استقرت أركانها أعادت بيت المقدس وحررت سائر البلاد لتستقر العروبة فيها حيثما كان للعرب موطنٌ تاريخيٌ ومستقرٌ منذ فجر التاريخ وقبل الإسلام. وعندما استقلت كل أمة بهويتها أقامت دولها وبقيت على إسلامها وبقيت بلاد العرب على عروبتها، وعندما تفتتت العروبة بين أقطار يتنازعها وكلاء الاستعمار ضاعت الهيبة وضاعت البلاد وخضعت للمحتل، فلن يأتيك محرر من غير جلدتك، ولن تقوم لنا قائمة إن لم نمتلك الأداة التي تزيح المحتل وتنفض نير التبعية، وهي الدولة القومية التي تحمل العرب كما حملتهم من قبل.

لن تجد عروبياً مؤمناً بعروبته إلا وقد وقف مع "طوفان الأقصى"، مع أن من حمل لواء هذه المعركة تنظيم إسلامي، وهذا مرده الانسجام الطبيعي بين العروبة والإسلام، ولا ينتقص من العروبة في شيء غياب العمل القومي والتنظيم القومي الذي يصول في ميدان المعركة، فـ"طوفان الأقصى" كان معركة في الاتجاه الصحيح، وكما خاضت العروبة معارك تحرير الجزائر مثلاً لم تكن تسأل المجاهدين هناك عن إسلامهم، وكما احتل العراق لعروبته وهوجمت سورية لأنها ترفع لواء العروبة، كان الأمريكان يرفعون راية لا إله إلا الله في عدوانهم عليهما، فهل نحاسب الإسلام على ذلك؟ هنا نحط الرحال للكثير من القول بما لا يتسع في هذا المقام، ولكن نقول إنه في حقيقة الأمر لا وجود لمشروع إسلامي في بلادنا بمعزل عن مشاريع الهيمنة الغربية وطلائعه من الإخوان والسلفية، وإن مشاريع الإسلام في المنطقة وخارج الإطار العربي قومية بامتياز، فها هما إيران وتركيا دولتان قوميتان بكامل معنى القومية، ولكنهما تدينان بالإسلام وترفعان شعارات إسلامية بصرف النظر عن أي تقييم، ففيهما لم يقف الدين حائلاً بين قوميتهما، فهذا انسجام طبيعي.

ففيمَ المأخذ على العرب إن طالبوا بدولتهم الواحدة؟ وأين الخروج من إطار الدين إن تبنينا العروبة إطاراً وأداةً لإقامة دولتهم دونما مساس بالعقيدة، فإزالة دولة الكيان من الوجود لن تقوى عليه حركة حماس وحدها، وإن نالت من العدو ما نالت ونحن معها ونؤيدها ونتبنى فعلها، ونحن مع حزب الله في ضرب العدو ونتبنى فعله أيضاً وهو الشيعي المذهب، سنبقى نردد أن المعركة أكبر من حزب أو تنظيم، إنها معركة الأمة، وأمة مشتتة لن تقوى على الحسم إن لم تقم كيانها القومي الطبيعي، وأنه طالما انتحى المشروع الإسلامي العربي إلى ظلال الغرب فسيبقى مشروعاً معادياً للعروبة والإسلام معاً، ومن المؤسف أن هذا المشروع ولد على قاعدة التناقض ومعاداة الهوية العربية ولهذا لن يفلح. وأما "طوفان الأقصى" فإنه طوفان عروبيٌ قوميٌ وإن حمل شعاراً إسلامياً لأنه ببساطة معادٍ للغرب ومشاريعه ووكلائه، ولأن حملة الإسلام السياسي يجدون حواملهم في الغرب من داعش إلى الإخوان إلى النصرة إلى غيرها، ويستقبلون ويمولون من هذا الغرب الذي يصفونه بالكافر، أما حماس المقاومة وحزب الله المقاوم فلا مكان لهما إلا على قوائم الإرهاب الغربية، لأنهما أصابا نقطة التصادم مع الغرب في قاعدته المتقدمة (إسرائيل).

ولأن معركة بحجم اجتثاث الكيان الغاصب من الضخامة بما لا تقوى عليه قوى المقاومة وحدها، فإنه لا مناص من القول إن قوى الأمة كاملة لا أقل من يستطيع التصدي لهذه المعركة. وبما أنه بدا بوضوح انخراط الغرب في معركة الدفاع عن الكيان الصهيوني، فنحن أمام مواجهة مع حلف الناتو بقاعدته الإمبريالية الدولية، وهذه معركة إن لم يقابل فيها العدو دولة عظمى فلن تقوى عليه دول متوسطة الحجم ناهيك عن التنظيمات، لهذا ليس من باب الحلم أو من باب الأماني ننشد الدولة العربية الواحدة على كامل الجغرافيا العربية، بل من باب الضرورة، ومن باب الشرط اللازم لخوض هذه المعركة، وليس هناك من قوة مرشحة لخوض هذه المعركة إلا الدولة العربية، التي تحشد طاقات الأمة بكاملها في هذه المواجهة، ودولة مثل إيران مثلاً لا تمتلك القدرة على التصدي لهذه المعركة مع التقدير لدورها في دعم المقاومة، ومع الاحترام لهذا الدعم فإن "طوفان الأقصى" أثبت أن الغائب عن حماية غزة وأهلها هو دولة الوحدة العربية، فهذه الدولة من مسؤوليتها بالضرورة الانخراط المباشر في المعركة، لا الإسناد فقط. ومع التأكيد مرة أخرى أن إسناد غزة من أكثر من جبهة له أثر إيجابي على المعركة لصالح غزة ويخوض معركة حقيقية لا مجاملة، وقد أدت جبهات الإسناد واجبها وزيادة، لكن قواعد الحرب تحكمها موازين دولية من خلفها دول ليس أقلها الولايات المتحدة والغرب عموماً. وهنا تبرز الحاجة إلى دولة الوحدة العربية، وهنا يتجلى غيابها، ففي الليلة الظلماء يفتقد البدر، ومع هذا ستكون هذه الدولة بحاجة للحلفاء الذين يقدمون الإسناد، فحقيقة الأمر أنك تواجه العالم الصناعي بكامل جبروته وطاقاته، ومن يعتقد بغير ذلك واهم.

وإذا كانت الحلبة الميدانية محور الصراع، فإن العرب أساساً هم هدف هذا الصراع وغنيمته وفريسته التي يتطلع إليها الغرب، فالوحدة والتحرير متلازمان، وكلاهما يبرر الآخر، فمن لا يريد أن يخوض معركة الوحدة العربية على قاعدة التحرير، أو لا يريد التحرير على قاعدة الوحدة العربية، فإنه ينحرف عن الهدف ويسير في مشروع مضلل، لا بل إنه يجترح مشروعاً مضاداً للوحدة والتحرير، فهذه معركة على العروبة ولن تخاض على وجهها الصحيح إلا بالعروبة.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

زمن سقوط الأقنعة واللعب على المكشوف

كريمة الروبي

لعل النتيجة الأهم لعملية "طوفان الأقصى" هي عودة الزخم لقضية الصراع العربي - الصهيوني، بعد أن أصابت الشعب العربي حالةٌ من اليأس في ظل انتشار موجة التطبيع المجاني لحكام الخليج وعقد الصفقات (كصفقة القرن) لتصفية القضية، فجاء الطوفان لينهي هذا المشهد العبثي ويحدث انتفاضة عند شعوب العالم أجمع حتى باتت القضية الفلسطينية قضية عالمية يتبناها كل شريف ذو ضمير حي في هذا العالم. ولكنها بالإضافة إلى ذلك، ومع استمرار المعارك، أسقطت الأقنعة عن الجميع وبات اللعب على المكشوف.

فقد كشف الغرب عن وجهه القبيح وراح يساند الاحتلال ويدعمه في حرب الإبادة التي يمارسها بحق أهلنا في غزة على مرأى ومسمع من العالم. ليس جديداً علينا نحن هذا الوجه، وهذا الدعم اللامحدود للغرب الذي أنشأ الكيان ودعمه وساعده في ارتكاب المجازر بحق الشعب الفلسطيني منذ أكثر من 75 عاماً، ولكنه أسقط القناع الذي كان يرتديه زعماء الغرب أمام شعوبهم التي أوهموها أنهم حراس الديمقراطية وحقوق الإنسان، فأيقظهم "طوفان الأقصى" من هذه الأوهام، فلا ديمقراطية

رأوها وهم يحتشدون بالآلاف رفضاً للعدوان الهمجي على غزة ولا يرون أي استجابة لمطالبهم بل يتم قمعهم واعتقالهم، ولا حقوق إنسان دافعت عنها حكوماتهم، بل ساهمت في إبادة شعب على مدار عقود.

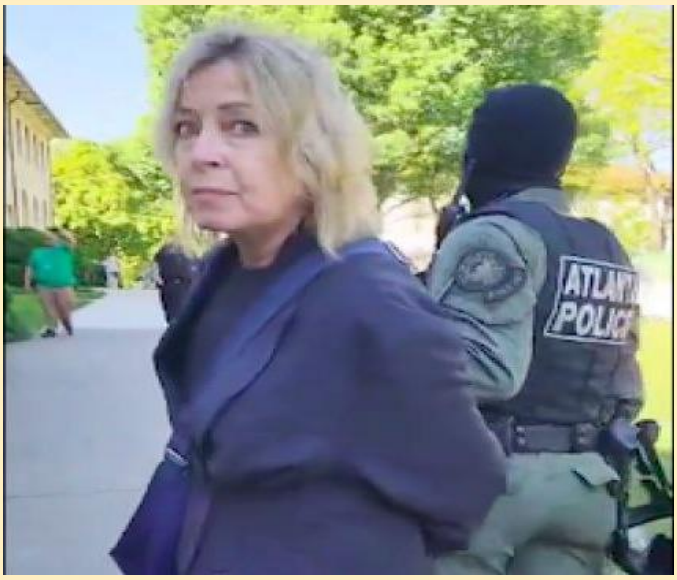

فقد جعل طوفان الأقصى الأمور واضحة لا لبس فيها أمام الجميع، وشاهدت هذه الشعوب بعينيها سقوط كل الشعارات التي كانوا يبيعونها لهم من حرية رأي وتعبير ومهنية إعلامية وديمقراطية وحقوق إنسان، وتسبب الدعم اللامحدود لكيان يقتل أمام الشاشات من دون اعتبار لصورته أمام العالم في بحث شعوب الغرب عن جذور الصراع وحقيقته حتى بات الشعار الذي يرفعه المتظاهرون في واشنطن ولندن وغيرها من عواصم الاستعمار القديم والجديد هو (من النهر للبحر، سوف تتحرر فلسطين) في إشارة لتبني الجماهير في العالم للسردية الرافضة لوجود الكيان الصهيوني ورفض فكرة الصهيونية من الأساس.

أما الجماعات المتطرفة التي ترفع السلاح في وجه أبناء جلدتها "نصرة للدين"، ولكنها تتغاضى عن جرائم الكيان الصهيوني بحق أخوة لهم في الدم والدين، وعن احتلال المسجد الأقصى، فقد أثبتت أنها مجرد حليف للكيان وجيش احتياط لقوى الغرب الاستعماري، فهم يحاربون بدلاً منهم وينفذون خططهم في تقسيم الدول العربية على أسس عرقية ومذهبية وتأجيج الصراعات الداخلية. وقد أظهر "طوفان الأقصى" مدى كذبهم وأسقط عنهم قناع الدفاع عن الدين، فالأقصى أمامهم محتل، وتنتهك حرمات المسلمات في فلسطين، ولا يحركون جيوشهم وأسلحتهم لنصرتهم.

قطر التي كانت تدعي مساندتها للمقاومة باستضافتها للقادة السياسيين لحركة حماس، في حين تنقل قناة "الجزيرة" التابعة لها أحداث غزة لحظة بلحظة، وإن كنا نعرفها ونعرف نواياها، ولكن الكثيرين قد خدعوا بها، بمجرد أن هددت الإدارة الأمريكية بإعادة تقييم العلاقات الأمريكية مع قطر، سقط قناع مساندة المقاومة وظهرت قطر على حقيقتها بإصدار بيان توضح فيه أنها تقوم بدور الوسيط بناءً على طلب أمريكي، وراحت تؤكد على أنها صديق وحليف رئيسي غير عضو في الناتو يستضيف حالياً 10.000 جندي وأكبر وجود عسكري أمريكي في "الشرق الأوسط". وهناك أنباء متداولة حالياً حول استغناء قطر عن قادة حماس من أجل عيون الحليف الأمريكي.

تركيا صاحبة أكبر تبادل تجاري مع الكيان الصهيوني، والذي لم يتوقف حتى في ظل حرب الإبادة والشعارات الرنانة التي يطلقها أردوغان عن وحشية الاحتلال وضرورة التصدي له، كشفت هذه الحرب حقيقة شعارات نظامها، وأسقطت عن رئيسها أحد الأقنعة التي يرتديها، فأردوغان بالذات يستطيع أن يرتدي أكثر من قناع ويستبدلها حسب الموقف والمصلحة. فبعد أن شن الأتراك حملة كبيرة ضد تصدير تركيا منتجاتها لجيش الاحتلال وانكشاف كذب وزيف شعارات أردوغان وخطابه الحماسي، وهزيمة حزب العدالة والتنمية في الانتخابات المحلية التي كان أحد أسبابها استمرار التبادل التجاري مع الكيان في ظل الحرب، قام أردوغان باتخاذ قرار بتقييد تصدير (54) سلعة إلى الكيان، وذلك من أجل إرضاء الجمهور

التركي وحصد العديد من المكاسب بتبني ملف فلسطين، والذي به يستطيع أردوغان أن يرتدي قناعاً جديداً، وخصوصاً مع وجود توقعات بلعب تركيا دور الوساطة في هذا الملف واستخدام المقاومة كورقة ضغط وفقاً لمصالحها.

كامب ديفيد التي طالما تم التسويق لها على أنها حماية للأمن القومي المصري ضد أي عدوان، وأنها تحمي البلاد من الدخول في حروب تنهك اقتصادها، أظهر "طوفان الأقصى" وما تلاه من أحداث أنها مجرد اتفاقية لحماية أمن الكيان عن طريق خروج مصر من الصراع، الأمر الذي جعلها تشاهد حرب إبادة على بعد خطوات من حدودها وتكتفي بلعب دور الوسيط في قضية هي صلب أمنها القومي، وباتت مصر التي كانت تقود الأمة العربية عاجزة عن إدخال المواد الإغاثية عبر معبر رفح إلا بالتنسيق مع الجانب "الإسرائيلي". فأصبح الهتاف الأهم في مظاهرات دعم فلسطين في مصر هو إلغاء اتفاقية كامب ديفيد.

أما الأنظمة العربية فقد أظهرت الأحداث أنها ليست ضعيفة أو متخاذلة بل متواطئة، حيث تصدت بعض هذه الأنظمة للمسيرات الإيرانية قبل وصولها للكيان الصهيوني، ومن قبلها تم تدشين جسر بري لتسيير الشاحنات المحملة بالبضائع من ميناء دبي مروراً بالأراضي السعودية ثم الأردنية وصولاً إلى ميناء حيفا في "إسرائيل" تجنباً لهجمات اليمنيين في البحر الأحمر. لقد كانت خيانتهم مستترة من تحت الطاولة ولكننا رأيناها تتجسد أمام أعيننا في دفاعهم عن أمن الكيان وكسر الحصار عنه.

تحدثنا كثيراً عن دور "إسرائيل" في تأجيج الصراعات المذهبية عن طريق عملائها أو باستخدام الوحدة (8200) التي تستغل مواقع التواصل الاجتماعي في إشعال هذا النوع من الصراعات، حتى جاءت جلسة مجلس الأمن المنعقدة عقب الهجوم الإيراني على الكيان الصهيوني ليظهر الكيان كمصدر مباشر لتأجيج الصراع الطائفي في المنطقة، حيث كان يقوم بذلك عن طريق وكلائه وعملائه حتى جاءت هجمات إيران في عمق الكيان لتصيبه بالجنون فيخرج علينا مندوب الاحتلال في مجلس الأمن ويتحدث عن حماية "إسرائيل" للمقدسات السنية من هجمات إيران الشيعية!

أما محور المقاومة فلم يكن في حاجة لارتداء أية أقنعة، فهو محور الصدق والفداء والدفاع عن الأرض والكرامة والقيم الحضارية والإنسانية، وجاء "طوفان الأقصى" ليؤكد أنه شرف هذه الأمة وعزتها.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

تحولات تاريخية نعيشها في زماننا

توفيق شومر

في لحظة من الانتشاء المفعم بالغطرسة، أعلن جورج بوش الأب بداية مرحلة جديدة للقوة المهيمنة "الوحيدة" في العالم.... كان ذاك في عام 1992، حيث قال إن الولايات المتحدة قد ربحت الحرب الباردة. والمفارقة الأكبر أن يكون جورج بوش الابن في سدة الحكم حين عانى الاقتصاد الرأسمالي العالمي أشد أزماته في العصر الحديث، وذلك عام 2008.

كان سقوط جدار برلين عام 1989، وتفكك الاتحاد السوفيتي عام 1991، هي اللحظات، مع غيرها من الأحداث التاريخية المهمة في تلك المرحلة، التي أعطت هذا الإعلان القوة والعنفوان. وفي ظل هذه النشوة العارمة بدأت الرأسمالية العالمية تنفيذ مخططاتها للعالم "الجديد"، بحسب ما كانت تعتقد. وكما هي الحال دائماً، ومع كل منعطف في تاريخ البشرية، تحدث تغيرات يعتقد المنتصر المتغطرس أن التاريخ قد أزف على الانتهاء إليه وأن هيمنته وغطرسته ستمكنه من الاستمرار في أعلى هرم التاريخ. لكن التاريخ الفعلي للعالم أدهى وأبأس من أن ينحني مطواعاً بأيدي الطغاة.

ترافق مع هذا "الانتصار" معالم ثورة علمية وتكنولوجية هائلة تمثلت فيما يعرف اليوم بثورة المعلومات والاتصالات. وهذه الثورة ساعدت رأس المال المالي على أن ينفذ الكثير من التغييرات على المستويات الاقتصادية والاجتماعية. لكن، ومع كل تغيير ممكن، لا بد من خطاب مرافق يدعم سرديته ويبرز سلطته المطلقة في فضائه المعلن. وتمثلت السردية التي أراد رأس المال المالي فرضها بنوعين من الأوهام: النوع الأول تمثل في خطاب "الحرية" و"الديمقراطية" و"حقوق الإنسان"، حيث ادّعت قوى الهيمنة الرأسمالية أنها المنافح والمدافع عن هذه المفاهيم الأساسية والتي يمكنها أن تحول كل المجتمعات في العالم لتتمكن من أن تصل إلى ما وصلت إليه المجتمعات في دول المراكز. وأن هذه القوة ستمنح مجتمعاتها، كما المجتمعات المهيمن عليها، الرخاء والاستقرار. والحل في قبضة من يعمل بجهد لتحقيق "أحلامه". فتم تصنيف العالم إلى قوى خيرة تدعم سردية "الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان"، بينما هناك قوى الشر المتمثلة بكل من يرفض هذه السردية، أو حتى يحاول أن يقدم سردية مقابلة لهذه المفاهيم.

النوع الثاني من الأوهام خصص لمجتمعات دول المراكز، بالرغم من أن تأثيره انتشر ليعم معظم أنحاء المعمورة. وهذا الوهم تمثل في اقتراح مفهوم "الطبقة الوسطى". وتمكن هذا المفهوم من التغلغل عميقاً في وعي كثيرين حول العالم. الهدف الرئيس من هذا الوهم هو تشويه التركيبة الاجتماعية في المجتمعات ومحاولة تجاوز الطبيعة الطبقية للمجتمعات البرجوازية، وبخاصة مجتمعات دول المراكز الرأسمالية، والتي تتمثل في طبقتين أساسيتين هما الطبقة المهيمنة: الطبقة البورجوازية بتفرعاتها: رأس المال المالي، البرجوازية الصناعية والبورجوازية الزراعية والبورجوازية التجارية،

والطبقة المهيمنة النقيض متمثلة بالطبقة العاملة وطليعتها "البروليتارية"، بحسب الطرح الماركسي الكلاسيكي. ويضاف إلى هاتين الطبقتين مجموعة من الشرائح الطبقية الوسيطة: البورجوازية الصغيرة (أصحاب المصالح الاقتصادية الفردية المساهمة في عجلة الإنتاج) والسماسرة والكمبرادور، والعسكر.

وكان الهدف من وراء طرح مفهوم "الطبقة الوسطى" إعطاء وهم لشريحة ضخمة من المجتمع بأنها ليست من الطبقة العاملة، وأن لها طبيعة نفسية واجتماعية وطبقية تختلف عن الطبقة العاملة. ولنقول الحقيقة فإن هذا الطرح تمكن فعلاً من استقطاب قبول كبير ليس فقط في المراكز، ولكن في الأطراف أيضاً، وتحول الكثيرون إلى الاعتقاد أنهم طبقة مختلفة وأن أي حديث عن الطبقة العاملة ودورها في المجتمع هو حديث غير موجه لهم.

ساهم اليسار في إذكاء هذه النزعة من خلال الاستمرار في الإصرار على التعريف الماركسي الكلاسيكي وعدم التوجه إلى هذه الطبقة باعتبار أنها لن تساهم في بناء الثورة المرتقبة.

ونتج عن هذه الأوهام جملة من التغيرات السياسية والاجتماعية حول العالم، إلى الدرجة التي دفعت القوى المؤهلة لمناهضة الهيمنة إلى التخلي عن الكثير من خطابها القديم. فنرى أن الكثير من قوى اليسار تحول إلى "يسار" ليبرالي يدعم مقولات "الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان" على أساس أنها بالفعل يمكن أن تساعد المجتمع نحو التغيير المرجو على المستوى العالمي. فنجد أن قوى "اليسار" بدأت بالانخراط في "منظمات المجتمع المدني" في المراكز والأطراف للدفع بمنظومة الحرية وحقوق الإنسان لتكون معياراً للتقدم والازدهار. وللأسف أن هذا "اليسار" الليبرالي لم يدرك خطورة وهم "الطبقة الوسطى" ولم يقدم أطروحات سياسية وعملية تستطيع أن تستقطب هؤلاء العمال بعيداً عن هذا الوهم.

ترافق مع هذه المنظومة من الأوهام تفوق ظاهري للسردية المهيمنة على العالم، ونتج عن هذا التفوق الظاهر أن حاولت بعض الدول التي كانت يوماً ضمن منظومة القوى المهيمنة في العالم في زمن التعددية القطبية، وعلى الأخص روسيا والصين، أن تحاول مجاراة التغير، على أساس أنه من الممكن لها أن تصل لتكون شريكاً فاعلاً في المنظومة المهيمنة الجديدة، حتى لو فقدت دورها في "القطبية"، أي أنها حاولت الالتحاق بالمنظمات الممثلة للقوة المهيمنة. ويمكن رؤية ذلك من خلال سعي الصين الحثيث للالتحاق بمنظمة التجارة العالمية، وسعي روسيا للانضمام إلى منظومة "السبعة العظام، G-7". وقد يكون تشكيل منظومة "العشرين" محاولة من رأس المال المالي للإبقاء على المنظومة القديمة كما هي وتوفير منظومة أخرى تتيح أن تشعر الدول الأخرى التي تحاول الالتحاق بأنها تمكنت من الدخول في "لعبة" الكبار. لكن هيهات أن تقبل هذه القوى المهيمنة أن تتشارك في مكتسباتها مع أي منافس.

استغلت الولايات المتحدة أحداث الحادي عشر من سبتمبر (إن لم تكن هي من صنعتها) لتستمر في غطرستها ولتبدأ بضرب كل القوى التي لا تتفق أو لا تؤيد سياساتها، وفبركت لذلك كل الحجج الممكنة، فإذا كان احتلال أفغانستان له ما يبرره في السردية التي قدمت لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، فإن التحول نحو غيرها من الدول كان يستدعي أن يتم ربط هذه الدول بالسردية المهيمنة، فكان خطاب كولن باول الذي فبركت فيه الولايات المتحدة المبررات التي ادعت أنها كافية لاحتلال العراق. لكن لم يكن ما تفعله الولايات المتحدة كافياً لتنفيذ كل مخططاتها، فما كان منها إلا أن بدأت بمشروعها في "الفوضى الخلاقة"، والذي يستند على خطاب "الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان".

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93 ـــــدد
01 أيار 2024

المشهد لم يكن ورديًا للولايات المتحدة في ما يلي من أحداث، فبعد أن اعتقدت أنها سيد العالم بلا منافس، وبعد أن بدأت بتوسيع حلف الناتو إلى الشرق بانضمام دول من المنظومة الاشتراكية السابقة إلى الحلف، بدأ الزلزال الأول من خلال أزمة 2007 – 2008 المالية، حينها لم يسأل رأس المال المالي عن "الطبقة الوسطى"، والتي كانت قد أغرقت بالديون "الميسرة" لتشتري العقارات والسيارات، ولتعتقد أنها تملك منزلها الخاص وتستمتع بمزايا الحياة البرجوازية، بل أنقذت فقط البنوك والمؤسسات المالية بضخ أكثر من 650 مليار دولار في عملية الإنعاش الطارئة، لتتمكن هذه البنوك والمؤسسات من الوقوف على أرجلها مرة أخرى. لكن "الطبقة الوسطى" كانت المتضرر الأساسي بفقدان ما اعتقدت أنها تملكه بالإضافة لفقدان الوظائف والمكتسبات الوهمية.

نتج عن أزمة 2008 عدد من التطورات التي غيرت الكثير من المعادلات. التأثير الأول كان على الوعي عند الطبقة "الوسطى" والتي بدأت تدرك أنها لا تملك، وأن ما كانت تشعر به ما هو إلا شعور كاذب حيث خسرت الكثير "مكاسبها" الوهمية في الدول الإمبريالية، وخصوصاً في الولايات المتحدة.

لكن التأثير الأهم هو أن هذه الأزمة أوضحت نوايا رأس المال المالي فيما يخص كل من الصين وروسيا، حيث اتضح أن الإمبريالية بقيادة رأس المال المالي ليس لديها أي نية في اعتبار روسيا والصين شريكين على مائدة الكبار. فعلى الرغم من ضم روسيا إلى السبعة الكبار (G7+) بصفة مراقب، إلا أنه لم تكن هناك نية لضمها رسمياً أو فعلياً.

بدأت الإمبريالية، في المقابل، في تغيير توجهاتها السياسية والاقتصادية، فقد بدأت محاولات لجم التنين الصيني، والسعي نحو فتح مناطق أخرى للصناعات قليلة التكلفة، وذلك بالبدء بدعم فيتنام، والتي بدأت بمغازلة الإمبريالية على الرغم من تاريخها الثوري، وبنغلادش كبديل يملك قوى عاملة رخيصة.

وفي محاولاتها للهروب إلى الأمام استمرت الإمبريالية بغطرستها المعهودة، بنقض وعودها السابقة بعدم توسع الناتو شرقاً نحو دول المنظومة الاشتراكية السابقة، وبدأت سلسلة من القرارات بالسماح لدول مثل بولندا وبلغاريا وغيرهما بالانضمام إلى الحلف. وفي الأفق نفسه، أي محاولات الهروب إلى الأمام، وسعت الولايات المتحدة من تفاعلات مشروعها في "الفوضى الخلاقة" إلى كثيرٍ من بقاع العالم. وكان انعكاس هذا المشروع في المنطقة من خلال ما تم تسميته بـ "الربيع العربي". فمع نهاية 2010 وبداية 2011 تعاظم مشروع "الفوضى الخلاقة" في الوطن العربي، ونتج عنه اتضاح لفحوى

الحرب العالمية الجديدة والمتمحورة حول الطاقة ومصادرها1. أدى هذا المشروع بالفعل إلى فوضى عارمة في المنطقة ما زلنا نعاني من تبعاته إلى اليوم.

مع إدراك روسيا والصين لفشل محاولاتهما الانضمام إلى جوقة رأس المال العالمي، بدأتا بالتفكير بالبدائل الممكنة وبدأتا بتنفيذ جملة من الإجراءات المضادة للهيمنة الإمبريالية ولتقويض نظام القطب الواحد. ففي عام 2009 بدأت الصين وروسيا التفاوض مع كل من الهند والبرازيل لبناء تجمع اقتصادي مستقل وغير خاضع لهيمنة رأس المال المالي، فكان تشكل حلف (بريك). لكن لم يفت وقت طويل ليتحول هذا الحلف إلى حلف خماسي بضم جنوب إفريقيا وتحوله إلى (بريكس). وبدأت هذه المنظومة بالمباشرة بالتدابير الممكنة لتقويض هيمنة الدولار والولايات المتحدة، من خلال البدء بتحضيرات لبدائل ممكنة عن منظومة بريتون وودز. وتمثل ذلك من خلال التعامل بالعملات المحلية، وتشكيل بنك تنمية جديد منافس لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وغيرها من الإجراءات الاقتصادية المهمة.

نتج أيضاً عن الأزمة الاقتصادية لعام 2008، ونظراً لعدم تمكن اليسار المتحول نحو الليبرالية من تقديم أطروحات كفيلة بتوضيح طبيعة الأزمة الاقتصادية والطرق الممكنة لتجاوز الأزمات المتكررة للاقتصاد الرأسمالي، من خلال العودة لتقديم طرح ثوري يسعى لتقويض الرأسمالية والتحول نحو الاشتراكية، ترك المجال مفتوحاً للقوى اليمينية لتبوء الطروحات البديلة. وتمثل هذا في العودة نحو الشعور القومي المغلق في كثير من دول العالم وعلى الأخص في أوروبا وما نتج عنه من صعود للأحزاب القومية الشوفينية فيها. وترافق أيضاً مع بداية تصدع حلم "الولايات المتحدة الأوروبية" بخروج بريطانيا من الوحدة الأوروبية.

أما في الولايات المتحدة، فكان من النتائج المتأخرة للأزمة، بداية التصدع السياسي داخلها، واجتمع في ترامب خصائص اليمين المتطرف والشوفيني، حيث عبر عنها من خلال شعار عودة الصناعة إلى الولايات المتحدة، ومن خلال سياسته الحمائية للصناعات المحلية، والتي لم ترق للطغمة المالية، والتي لعبت دوراً كبيراً في فشله في الحصول على دورة ثانية. وما المطالبات المختلفة لجمهوريات كتكساس وأريزونا وكاليفورنيا بالانفصال إلا تداعيات لهذا الخلاف السياسي المحتدم.

ومع فشل روسيا والصين في الالتحاق بركب الإمبريالية العالمية، كان لا بد لهما من الناحية الاستراتيجية الرد المباشر والسريع على أي خطوات يمكن أن تؤثر على قوتهما. لذلك، كان طبيعياً رد فعل روسيا على الانقلاب في أوكرانيا عام 2014، وسيطرة اليمين الفاشي على السلطة فيها بدعم مباشر من الإمبريالية العالمية، فكان ضم القرم إيذاناً صريحاً من روسيا بعودتها بقوة إلى الساحة السياسية العالمية. والتعبير الآخر الذي تبعه كان دخول روسيا المباشر على خط الأزمة السورية في 2015.

وبالرغم من إصرار روسيا على تحذير الغرب من الاستمرار في سياسة التوسع في الناتو بقيت محاولاته مستمرة في أوكرانيا تحديداً مما أدى في النهاية إلى دخول روسيا لأوكرانيا في شباط 2022 في محاولة للجم أحلام الناتو والتوسع

[1] ينظر هنا لمقالتي: الجغرافيا السياسية والتغيير، في مؤتمر فيلادلفيا: الشباب والسياسة والثورات وثقافة التغيير، تحرير: صالح أبو أصبع وآخرون، 2013، عمان: جامعة فيلادلفيا. والجغرافيا السياسية والأوضاع في المنطقة، مجلة الاشتراكية 2015، عمان: منتدى الفكر الاشتراكي.

الإمبريالي، وما تبعه من توسع معادلة التبادل بالعملات المحلية في كثيرٍ من التبادلات التجارية العالمية، مما دفع إلى انحسار دور الدولار إلى أقل من 48% من الاقتصاد العالمي، ومن طلّب الكثير من الدول الانضمام إلى المنظومة، وتوسيعها مؤخراً بدخول كل من الإمارات والسعودية ومصر وإثيوبيا والأرجنتين وإيران.

كان السابع من أوكتوبر الحدث الأكبر في معادلة التغيرات الحادثة في العالم منذ 1990. دفعت عملية طوفان الأقصى الإمبريالية إلى حالة غير مسبوقة من الجنون، فتلك اللحظة لم تكن فقط ضربة لمفهوم التفوق العسكري والاستخباري للكيان الصهيوني، بل أيضاً ضربة للموازين التي استندت إليها الإمبريالية. فكانت ردة الفعل من قبل الدول الإمبريالية غير مسبوقة في محاولتها لتأكيد دعمها ومساندتها لربيبتها الكيان الغاصب.

لكن ردة الفعل المسعورة من قبل الكيان الصهيوني، ومن قبل الإمبريالية بشكل عام، أدت إلى فضح كذب السردية التي سعت الإمبريالية بقيادة الولايات المتحدة إلى فرضها على العالم منذ خطاب بوش الأب.

وفي مقابل هذا الجنون المحموم، جاءت الهبات الجماهيرية في العالم أجمع ضد مواقف الدول الإمبريالية وضد همجية الكيان الصهيوني في حربه ضد الشعب العربي الفلسطيني بشكل عام، وضد غزة بشكل خاص. وارتفعت الأصوات المدوية في الساحات، الحرية لفلسطين من البحر إلى النهر، ... ولا لـ 75 عاماً من الاحتلال.

هذه الهبات والتعبيرات السياسية لدول الأطراف ضد مواقف الإمبريالية لم تأتِ فقط لنصرة فلسطين لكنها جاءت معبرة عن إدراك الجماهير والدول لضرورة التحرك، من أجل فلسطين ومن أجل أنفسهم في الوقت عينه. هذا الحجم من المظاهرات والحراك العالمي تعبيرٌ عن لحظة فضح كل مخططات الإمبريالية وكذب وزيف سردية "الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان".

الشكل الأول من الحراك يعبر عن الهوة الكبيرة بين دول المراكز الإمبريالية والدول التي تسعى للتحرر والانعتاق والاستقلال الحقيقي، فكانت مواقف دول أمريكا اللاتينية وبعض دول إفريقيا معبرة عن هذا التوجه. وبدأت هذه الدول حراكها ضد المراكز الإمبريالية منذ سنوات في أمريكا الجنوبية والانتقال نحو الخيار الاشتراكي في العديد من الدول. وفي العام الماضي شهدنا التحركات الكبيرة في إفريقيا ضد الإمبريالية. أما فيما يتعلق بالتحركات بعد السابع من أوكتوبر، فمن الدول من طرد السفير الصهيوني ومنها من قطع العلاقات ومنها من وجه إصبع الاتهام إلى الولايات المتحدة، وتكلل هذا الحراك بالقضية التي رفعتها جنوب إفريقيا ضد الكيان الصهيوني.

الشكل الثاني هو تحركات الجماهير في الدول الإمبريالية. فهذه الجماهير، والتي تعرضت لأزمات اقتصادية متلاحقة منذ أزمة 2008، بدأ يتضح لها أنها لا تصنع سياسات دولها، واتضح لها زيف ما تدعيه دولها حول "الطبقة الوسطى"، واتضح لها أن سردية "الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان" كانت موجهة للهيمنة على الدول التابعة ولم تكن يوماً تعبيراً عن قناعات الطبقة الرأسمالية المهيمنة على العالم. انكشف لهذه الشعوب مقدار الكذب الذي يتم تسويقه على المستوى الإعلامي. وانكشف لهذه الشعوب مقدار ارتهان دولها للقوة المهيمنة العالمية المتمثلة بالولايات المتحدة.

العالم يتغير، والتوجه نحو التعددية القطبية بدأ يبرز في السياسة العالمية حتى بدون موافقة الولايات المتحدة. والتغيير آتٍ لا محالة، فحركة الشعوب هذه حقيقية وليست حركة مفبركة كما حدث في بعض حراكات "الربيع العربي". الشعوب لا تقبل الذل حتى وإن استكانت لبعض الوقت، وهذه الشعوب ستفرض التغيير قريباً.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

هل ينجح الاحتلال الصهيوني بالإبادة الثقافية للهوية العربية الفلسطينية؟

ميادة إبراهيم رزوق

على مدار عقود طويلة، شهدت خريطة الجغرافيا السياسية حول العالم العديد من الصراعات الأيديولوجية والعسكرية بين الأقليات العِرقية والدينية وبين الدول التي يعيشون فيها، وقد كان النمط الأغلب في هذه الصراعات معتمداً على الشق العسكري وعمليات التطهير العرقي، لكن عمليات التطهير العرقي والإبادة العسكرية لم تخلُ في كثير من الأحيان من عمليات إبادة ثقافية ومعرفية، إلا أن الإبادة الثقافية هنا ليست على طراز "العولمة الأميركية" في صورتها الحديثة في هذا العصر، كمطاعم الوجبات السريعة أو نشر الثقافة الأميركية في مجتمعات لا تُشبهها، فالأمر هنا يصل إلى التدمير الفعلي للمعتقدات والأفكار والنسق المجتمعي للأقليات بالقوة، بغرض تفتيت النسيج المجتمعي والوصول إلى حالة الخضوع الكامل أو التهجير والتطهير العِرقي، وبالتالي يمكن تعريف مصطلح "الإبادة الثقافية" بأنه إفناء متعمد وممنهج لثقافة وتراث شعب ما من قبل مجموعة أخرى، وعادةً ما تتم تلك الإبادة عبر العنف والإرهاب الجسدي والإغواء والتعذيب النفسي، مرتكزة على طمس جميع السمات المميزة (الروحية والمادية والفكرية والعاطفية) إلى جانب اللغة والآداب والفنون، وطرق الحياة والعيش، والتقاليد والمعتقدات، ومنظومة القيم ليصبح ذلك الشعب بلا أيّ أثر أو تاريخ حقيقي ملموس، وبالتالي استهداف الهوية الجماعية والتاريخ الجماعي، الذي يترك آثاراً دائمة على الذاكرة الجماعية وهويتها، ويزخر التاريخ الحديث بنماذج مروعة من الإبادة الثقافية، التي تعمدت تدمير التراث والهوية الثقافية لمجموعة ما، ونذكر منها الأنماط التالية:

- ❖ استعمار استغلالي لجأت فيه دول كبرى إلى نهب وسلب مُنظمين لثروات البلدان الأخرى، وتدمير تراثها الحضاري والثقافي من خلال احتلال الدولة المُستعمِرة الدولة المُستعمَرة عسكرياً وإدارياً؛ لأهداف اقتصادية (نهب ثرواتها وتسخير عمالتها)، أو أهداف استراتيجية (الاستفادة من موقعها الجغرافي لأغراض مختلفة). ومثال ذلك الاستعمار الغربي في صوره المتعددة للدول الإفريقية والآسيوية طيلة القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

- استعمار استيطاني لا تكتفي فيه القوى العسكرية باحتلال البلاد وإدارتها ونهبها، بل تمتد سطوتها إلى الحصول على الأرض نفسها وإنهاء الوجود المادي والقومي والثقافي لأهلها، قبل أن تدعو القوى الاستعمارية مواطنيها للاستيطان في الأرض المُفرَّغة واعتبارهم شعبها الجديد، مثال ذلك ما حدث في الأميركيتين وأستراليا اللتين حلَّ السكان الأوروبيون محل الكثير من سكانها الأصليين، وباتوا هم أصحاب الأرض.
- وبين النمطين، يأتي نمط ثالث دمج كلًّاً منهما وأنتج الكيان الاستعماري الجديد "كيان الاحتلال الصهيوني". نتج هذا النمط بالاعتماد أساساً "على التراث العنصري الغربي الذي حوَّل العالم إلى مادة استعمارية لصالح الإنسان الغربي صاحب القوة"، ما يعني رغبة القوى الاستعمارية الصهيونية في نهب ثروات فلسطين وتسخير أهلها لخدمة الاحتلال. وفي الوقت نفسه، جرى اختلاق سردية "أرض الميعاد" ونزع الشرعية عن الوجود العربي في فلسطين، واعتبار الفلسطينيين غزاة محتلين يجب إجلاؤهم عن (أرض إسرائيل المقدسة)، ما يستلزم استيطان الأرض وسلب أكبر قدر ممكن منها، أي أن الاستعمار الصهيوني كان استعماراً واستيطاناً في الوقت نفسه، وهو استيطان مستمر وليس حدثاً منفصلاً، فكل ما يبتلعه من أراضٍ حِلٌ له، مع الإشارة إلى أنه لم يُخفِ العدو الصهيوني يوماً - منذ نشأة كيانه المغتصب- هدفه الأساسي لتفريغ الأرض الفلسطينية، ومحاولة إظهارها أرضاً فارغة مخصصة للصهاينة، فقام بسياسة استعمارية إفراغية (تفرغ الأرض) مختلفة عن نظيرتها الأوروبية المتمثلة في استغلال السكان مع تحويل من تبقى من السكان الفلسطينيين إلى مادة استعمالية يسخرهم ويستعملهم بوصفهم يداً عاملة رخيصة، لكنه لم يفلح في محو السكان الأصليين كما حدث في الولايات المتحدة، نظراً لما يمتلكونه من مقومات ثقافية استعصت على عملية الاستعمار. بعبارةٍ أخرى، فإن العمق الثقافي والحضاري لفلسطين، والامتداد العربي الإسلامي لشعبها، كانا مفاجأة لم يتوقعها المستعمر الصهيوني الغاصب الذي ظن أن تجارب أوروبا في أميركا وأستراليا ستتكرر معه، ولهذا فإن الاحتلال يجد نفسه دائماً في حالة تعطش دائمة للإبادة العِرقية والمكانية والهوياتية للشعب العربي الفلسطيني حتى يتمكن من إعلان كيانه دولة طبيعية يفرضها على العالم بصورة نهائية ولا تخشى على نفسها من أي مقاومة بعدها.

لهذا فإن الإبادة لم -ولن- تتوقف، أي أن الإبادة الثقافية في فلسطين ليست فعلاً عارضاً، أو ضرراً جانبياً من أضرار الاحتلال الصهيوني الغاصب، بل هي في قلب الاستراتيجية الاستعمارية الصهيونية. وقبل استعراض منهجية كيان الاحتلال الصهيوني، ومنذ نشأته، لتكريس الإبادة الثقافية، لا بد أن نؤكد، وعلى الرغم من محاولات كيان العدو الحثيثة لاجتثاث كل ما هو فلسطيني من الأراضي المحتلة، إلا أن بعض الوثائق، تثبت بجلاء أن الأرض فلسطينية عربية، ولعل أبرز تلك الوثائق هي بطاقة الجنسية الخاصة ببعض أفراد الرعيل الأول من القادة الصهاينة في الأراضي المحتلة. فعلى سبيل المثال، ولد رئيس الوزراء "الإسرائيلي" الأسبق شيمون بيريز في بولندا في 1923، وهاجرت أسرته إلى الأراضي المحتلة في 1934، أثناء الانتداب البريطاني على فلسطين، وتظهر الصورة التالية بطاقة تجنيس بيريز، مكتوبة باللغة العربية والعبرية والإنكليزية، وفي رأس بطاقة التوثيق كُتب «حكومة فلسطين».

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93 ـــــــدد
01 أيار 2024

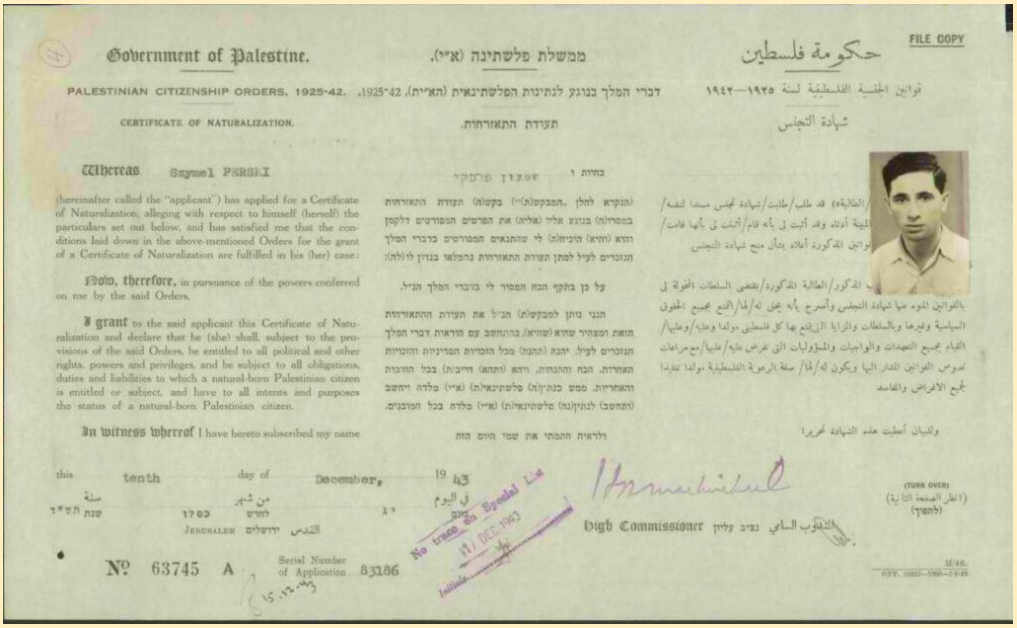

Government of Palestine. ממשלת פלשתינה (א"י). حكومة فلسطين

FILE COPY

PALESTINIAN CITIZENSHIP ORDERS, 1925-42. דברי המלך בנוגע לנתינות הפלשתינאית (א"י), 1925-42. قوانين الجنسية الفلسطينية لسنة ١٩٢٥—١٩٤٢

CERTIFICATE OF NATURALIZATION. תעודת התאזרחות. شهادة التجنس

Whereas Szymel PERSKI

(hereinafter called the "applicant") has applied for a Certificate of Naturalization, alleging with respect to himself (herself) the particulars set out below, and has satisfied me that the conditions laid down in the above-mentioned Orders for the grant of a Certificate of Naturalization are fulfilled in his (her) case:

Now, therefore, in pursuance of the powers conferred on me by the said Orders,

I grant to the said applicant this Certificate of Naturalization and declare that he (she) shall, subject to the provisions of the said Orders, be entitled to all political and other rights, powers and privileges, and be subject to all obligations, duties and liabilities to which a natural-born Palestinian citizen is entitled or subject, and have to all intents and purposes the status of a natural-born Palestinian citizen.

In witness wherrof I have hereto subscribed my name

this tenth day of December, 19 43

No trace on Special List 11 DEC 1943

High Commissioner

(TURN OVER)

No 63745 A Serial Number of Application 83186

بطاقة تجنيس شيمون بيريز بعد هجرة عائلته من بولندا إلى الأراضي العربية المحتلة في فلسطين

تعد مجزرة دير ياسين التي قامت بها عصابتَا "إرغون" و"شتيرن" بحق المدنيين الفلسطينيين في قرية دير ياسين الواقعة بإحدى ضواحي القدس في نيسان/أبريل عام 1948 من أفظع عمليات الإبادة وأحد أكثرها رمزيةً للإجرام الصهيوني "نهج كيان الاحتلال في تأسيس دولته المزعومة". استمرت مجزرة دير ياسين نحو 13 ساعة وراح ضحيتها 254 فلسطينياً وفقاً للصليب الأحمر، بينهم 52 طفلاً ورضيعاً، و25 امرأة حاملاً، وشيوخٌ من الجنسين تجاوزوا الثمانين والتسعين من أعمارهم، حيث تم إعدام عائلات بأكملها بفتح النار عليهم بلا تمييز، وذبح عدد من النساء بعد اغتصابهن، فضلاً عن بقر بطون الحوامل منهن، وسرقة حُليهن جميعاً بعد التمثيل بجثثهن.

لم تكن المجزرة خطأً فردياً في مسيرة الاحتلال الصهيوني عقب قرار التقسيم، وإنما مفخرة تباهى بها منفذوها الذين أصبحوا قادة للكيان لاحقاً، ومنهم "مناحيم بيغن" قائد إرغون، الذي شغل منصب رئيس الوزراء وحاز جائزة نوبل للسلام عام 1978، والذي قال مفاخراً إن الحملة الإعلامية التي تبعت "دير ياسين" أثمرت "نتائج كبيرة غير متوقعة، إذ أصيب العرب بهلع قوي لا حدود له، فأخذوا بالفرار للنجاة بأرواحهم". ولم يكن هذا الهلع نتيجة عشوائية، بل كان هدفاً مخططاً له قبل ضغطةَ الزنادِ الأولى، إذ اعترف منفذو المذبحة من إرغون برغبتهم في ارتكاب مجزرة تنكسر بها معنويات العرب، وبحسب شهادة القائد "يهودا لابيدوت"، كان الاقتراح المقدم للاقتحام هو "تصفية سكان القرية بعد احتلالها لإفهام العرب ما قد يحدث حين يشترك إرغون وشتيرن في عملية ما". وبالفعل كانت تلك المجزرة أحد العوامل التي دفعت الفلسطينيين نحو الهجرة من أراضيهم، ولهذا قال مناحيم بيغن إنه لولا دير ياسين لما كانت هناك (إسرائيل). وقد احتفى الكيان الصهيوني بتلك المذبحة أيَما احتفال، لدرجة أن حكومته أطلقت أسماء العصابات الصهيونية المشاركة فيها وفي غيرها من مذابح على الشوارع في مستوطنة "جعفات شاؤول" المُقامة على أنقاض القرية الذبيحة.

وبالتالي لم تكن هذه المجزرة المروعة تخطيطاً مرحلياً مؤقتاً يستهدف إخافة الفلسطينيين فحسب، وإنما هي جزء من مخطط "أبجد" التطهيري المصمم لإفراغ أكبر قدر ممكن من أراضي فلسطين. فبعد تصميم الخطة (أ) والخطة (ب) في زمن

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

الانتداب البريطاني، أتت الخطة (ج) في أيار/مايو 1946 تطويراً نهائياً لخطة التطهير التي انتهجتها العصابات الصهيونية قبل خروج الاستعمار البريطاني، وكانت تقضي بتدمير المواصلات العربية في فلسطين وتفجير البيوت التي يستخدمها المقاومون العرب وطرد سكانها من أجل احتلال الأراضي العربية الواقعة بين المستعمرات اليهودية المعزولة عن بعضها، ولتنفيذ ذلك جرى توجيه 90 ضربة هجومية نحو القرى والبلدات الفلسطينية.

وبحلول شهر نيسان/ابريل 1947 كانت العصابات الصهيونية قد أخلت منطقة السهل الساحلي الواقعة بين مستوطنتي "زخروفيعكوف" و"تل أبيب"، بالإضافة إلى إبادة 30 قرية فلسطينية ومسحها من الوجود لمنع سكانها المُهجَّرين من العودة إليها مرة أخرى، مما تسبب بترحيل قرابة 30 ألف فلسطيني، لتليها الخطة (د)، وهي العملية الأضخم لتطهير فلسطين عِرقياً، واستمرت بين نيسان/أبريل 1948 وأيار/مايو 1949، وكانت تقضي بالاستيلاء على النقاط الرئيسية والطرق قبل رحيل البريطانيين، وبناء على ذلك اعتمدت الخطة توسيع (دولة كيان الاحتلال) إلى أبعد من حدود التقسيم، ونسف القرى العربية وحرقها وتدميرها، وطرد السكان العرب المحليين إلى خارج الحدود، حتى بلغ عدد المجازر الموثقة نحو 77 مجزرة في الفترة التي سبقت حرب 1948 فقط، والتي انتهت بانتصار الكيان الذي أقام (دولته الغاصبة) على خطوط الهدنة التي فاقت حدودها حدود تقسيم الأمم المتحدة عام 1947 بنحو مرة ونصف المرة، بالتالي تم تلخيص الاستراتيجية الاستعمارية بكلمتين شديدتَيْ الوضوح "طيهور"، وتعني بالعبرية "تطهير"، وترمز إلى طرد السكان العرب من بيوتهم، و"لهشميد"، وتعني "دَمِّروا"، وتأمر الجنود بنسف البيوت بعد تطهيرها وزرع الألغام بين ركامها حتى لا يعود أهلها.

بهاتين الكلمتين ابتدأت سرقة الأرض العربية والمال بعد سرقة الأرواح والجثث. فبلغت عمليات السرقة والنهب درجة من الانتشار، حتى إنها شملت جميع طبقات المجتمع الصهيوني المستوطن الغاصب لأرض فلسطين بما فيهم الضباط والجنود، فنهبوا المنازل بما فيها من أموال ومجوهرات ومقتنيات ثمينة، فضلاً عن نهب المخازن والورش والمعدات الزراعية الثقيلة وقطعان الماشية، وتجريد النساء من مصاغهن وأموالهن على الحواجز قبل تهجيرهن، حتى قال بن غوريون في مذكراته: "شاهدت ثروة لا يصدقها عقل، يجب حمايتها قبل فوات الأوان"، فأصدرت حكومة كيان العدو في حزيران/يونيو 1948 لائحة خاصة بما سمَّتها "المناطق المهجورة"، وهي الأراضي التي هُجِّر منها أهلها، وتنص على أن "الممتلكات العائدة للاجئين الفلسطينيين هي ممتلكات متروكة عُهِد لوزير المالية بتنفيذ أحكام الاستيلاء عليها، وبناء على ذلك خضعت 300 قرية فلسطينية مُهجَّرة أو شبه مُهجَّرة لملكية الحكومة الصهيونية، فاستولت على ما يفوق ربع مليون دونم من أراضي الفلسطينيين الذين بقوا داخل الأراضي المحتلة (عرب 48)، فضلاً عن سلب 25 ألف بناء بأكثر من 57 ألف مسكن، و10 آلاف محل تجاري أو صناعي، وتحويلهم إلى عهدة شركة عميدار من أجل تسكين المهاجرين اليهود فيها، لينتهي النهب والسرقة بتأسيس الكيان واعتراف العالم به دولةً، دولة مزعومة لم تكن لتتوقف عن تحويل فلسطين إلى بلد آخر، لا تمتلك أرضه فقط، وإنما تسلب تاريخه وتحاصر مستقبله، ومن هنا أتت الخطوة الثانية التي لا تقل أهمية عن إبادة

العِرق وسلب المال والممتلكات وهي إبادة المكان لإكمال تنفيذ المشروع الصهيوني القائم بالأساس على فكرة أن أرض فلسطين يهودية.

ولسد الثغرات الجغرافية لهذه السردية، كان من الطبيعي أن يعمد الكيان الصهيوني إلى تهويد الجغرافيا بمجرد الاستيلاء عليها. وبالتالي تنطوي عملية الاستبدال أو التهويد على مسعى محموم لامتلاك البلاد وحرمان العرب من الانتساب إليها، وهو ما تعبر عنه بوضوح مقولة بن غوريون الشهيرة: "علينا أن نفعل كل شيء لضمان ألا يعود الفلسطينيون أبداً. كبار السن سيموتون، والصغار سينسون"، علماً أن إجراءات التهويد بدأت في عام 1931 عندما أصدر الانتداب البريطاني قائمة بالأسماء الجغرافية لأراضي فلسطين، حيث تقدَّم حينها "إسحاق بن تسفي"، رئيس اللجنة التنفيذية بالمجلس القومي الصهيوني، بمذكرة تفصيلية للسلطة البريطانية تتضمن تعديلات تهويدية للأسماء المعلنة.

ورغم تجاهل الانتداب البريطاني للأمر، خشية تفاقم السخط العربي المتأجج بفعل هجرة اليهود، فإن هذا المسعى بُعِث من جديد، من دون أن يعترضه أي حائل، مع إعلان دولة الاحتلال وتشكيل بن غوريون اللجنة الحكومية للأسماء، التي أوكِلت إليها مهمة "عبرنة" جغرافيا فلسطين العربية والإسلامية، أو بكلمات أخرى: تحويل فلسطين إلى (إسرائيل).

فكانت اللجنة دؤوبة في عملها لدرجة أنها هوَّدت في عام واحد، وفي النقب وحده، أكثر من 560 مَعلَماً جغرافياً، فيما أصدرت وزارة الحرب "الإسرائيلية" تقريرها بتغيير هوية 500 موقع إسلامي تقريباً واعتبارها "مواقع يهودية مقدسة". واستمرت عملية التهويد بشكل تدريجي ومرحلي، وعبر 10 آليات، لتهويد الأسماء (أسماء تناخية، توراتية، تلمودية، إلخ) وأتت المحصلة بتهويد قرابة 7000 موقع جغرافي بفلسطين، فضلاً عن تهويد أكثر من 5000 موقع تحمل أسماء تاريخية، وإنشاء نحو ألف مستوطنة بأسماء عبرية على أنقاض القرى العربية المُهجَّرة.

وبنفس الاطار التهويدي استمرت الاجراءات والممارسات الصهيونية وفق ما يلي:

- الهندسة والعمارة: فلم يغفل كيان الاحتلال دور الهندسة والمعمار في تعميق استيطانه ومحاولاته المستميتة لتهويد ما تبقى من أرض فلسطين. فبحسب المعماري الأكاديمي الإسرائيلي "إيال وايزمان"، كانت العمارة إحدى الوسائل المباشرة لبسط سلطة الاحتلال على الضفة الغربية، وغزة قبل الانسحاب منها عام 2005. ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما صنعته اللجنة العسكرية عقب احتلال شرقي القدس عام 1967، حيث صممت مخططات معمارية لضم أكبر قدر ممكن من أراضيها، عبر تشييد 12 حياً صهيونياً لتطويق الأحياء والقرى العربية الفلسطينية وعزلها عن بعضها بعضاً، فضلاً عن تشييد حلقة واسعة من المستوطنات على حدودها من أجل فصل شمال الضفة عن جنوبها. وإمعاناً في تهويد المدينة، عمد الاحتلال إلى استخدام حجارة موحدة (سميت بحجر القدس) لبناء الواجهات الخارجية لمنازل اليهود الجديدة، أو تغليف واجهات البنايات التي يصعب هدمها، ومن ثم خلع الصفة اليهودية على المدينة بتهويد بناياتها، خاصة أن الحجر المستخدم له رمزية توراتية. ومن خلال هذه السياسة المعمارية التي انتهجها الاحتلال على أراضي الضفة بأكملها، حول الكتلة الجغرافية الفلسطينية إلى ما سمّاه "إيال وايزمان" بأرخبيل أراضي، أي إن القرى والأحياء الفلسطينية بالضفة تحوَّلت بفعل المستوطنات إلى نحو 200 جزيرة منعزلة، لا يفصلها الماء وإنما هندسة الاحتلال التي تعوق التئام الشعب الفلسطيني وتمحو هويته عن بلده بالتدريج.

- إبادة الهوية العربية الإسلامية التاريخية لمدينة القدس، وفرض طابع مستحدث جديد، وهو الطابع الصهيوني اليهودي وذلك من خلال:

❖ الاستيطان "التجنيس" ومصادرة الأراضي: حيث سعى الكيان الصهيوني خلال العقود الماضية إلى استكمال مخططه الاستيطاني الهادف للسيطرة الكاملة على مدينة القدس، من خلال توسيع ما يسمى بحدود القدس شرقاً وشمالاً، وذلك بضم مستوطنة "معاليه أدوميم" التي يقطنها حوالي 20 ألف نسمة، كمستوطنة رئيسية

من الشرق، إضافةً إلى المستوطنات العسكرية الصغيرة مثل "عنتوت، ميشور، أدوميم، كدار، كفعات بنيامين" من الجهة الشرقية، "وكخاف يعقوب، كفعاتزئييف، كفعاتحدشا، كفعاتهاردار" من الشمال مما أدى إلى مضاعفة عدد المستوطنين، وفي نفس الوقت قللت نسبة السكان العرب الفلسطينيين الذين يشكلون ثلث سكان القدس.

- تهجير الفلسطينيين وسحب الهويات منهم "إسقاط الجنسية": تعتبر سياسة تهجير الفلسطينيين من مدينة القدس إحدى الوسائل المعتمدة لخلق واقع جديد يكون فيه اليهود النسبة الغالبة في مدينة القدس، وقد وضعت الحكومات المتعاقبة لدولة الاحتلال مخططات من أجل ذلك. كما عملت حكومات الاحتلال الصهيوني الغاصب المتعاقبة على تنفيذ توصية اللجنة الوزارية لشؤون القدس لعام 1973 برئاسة غولدا مائير، والتي تقضي بألا يتجاوز عدد السكان الفلسطينيون في القدس 22% من المجموع العام للسكان. لذلك، لجأت سلطات الاحتلال إلى استخدام الكثير من الأساليب لتنفيذ هذه الوصية، والتي كان آخرها سحب الهويات من السكان العرب في القدس.

- سلاح القوانين والتشريعات: كان من الأساليب المبتكرة لسلطات الاحتلال من أجل تهويد مدينة القدس إصدار ما يسمى بقانون التنظيم والتخطيط، الذي انبثقت عنه مجموعة من الخطوات الإدارية والقانونية المعقدة والتعجيزية في مجالات الترخيص والبناء، بحيث أدى ذلك إلى تحويل ما يزيد على 40% من مساحة القدس إلى مناطق خضراء يمنع البناء للفلسطينيين عليها، وتستخدم كاحتياط لبناء المستوطنات كما حدث في جبل أبو غنيم، وقد دفعت هذه الإجراءات إلى هجرة سكانية عربية من القدس إلى الأحياء المحيطة بالمدينة نظراً إلى سهولة البناء والتكاليف. وفي عام 1993 بدأت مرحلة أخرى من تهويد القدس، وهي عبارة عن رسم حدود جديدة للمدينة (القدس الكبرى) المتروبوليتان، وتشمل أراضي تبلغ مساحتها 600 كم مربع أو ما يعادل 10% من مساحة الضفة الغربية، لتبدأ حلقة جديدة من إقامة مستوطنات خارج حدود المدينة هدفها الأساسي التواصل الإقليمي والجغرافي بين تلك المستوطنات لإحكام السيطرة الكاملة على مدينة القدس.

لم تتوقف حرب الإبادة بشكل عام، والإبادة الثقافية بشكل خاص، بحق الشعب العربي الفلسطيني على السياسة الهندسية والجغرافية للاحتلال والتهويد بعد سياسة التهجير والنهب والسرقة، انطلاقاً من العقيدة الصهيونية المؤمنة بأن وجود دولتها يعتمد في جوهره على محو شعب آخر من الوجود جغرافياً وتاريخياً وثقافياً، بل استمرت ممارسة التطهير العرقي وكل الممارسات الإجرامية الأخرى الممكنة ضد الشعب الفلسطيني لمسحه من وطنه، ومن الذاكرة الجمعية للعالم. وما يحدث في غزة اليوم ليس سوى الحلقة الأحدث ودير ياسين جديدة في تلك السلسلة الطويلة من الانتهاكات التي لا يمكن أن يوجد المشروع الصهيوني بدونها، حيث يعد إجرام كيان الاحتلال الصهيوني في غزة اليوم، ومنذ 7 تشرين الأول /أكتوبر، أبعد بكثير من مجرد التدمير المادي للأبنية والمدارس والجامعات والمستشفيات والمعالم الأثرية والدينية أو قتل الأفراد، بل تندرج هذه الممارسات في إطار عمليات تدميرية أوسع تقوّض إرث المجتمع المحلي وهويته ووجوده، مع ما يترتب عن ذلك من تداعيات رمزية ونفسية على الفلسطينيين ليس في غزة فحسب وإنما في العالم بأسره.

فقد يتسبب التدمير المادي للمواقع الثقافية في غزة بمضاعفات خطيرة على دراسة السرديات التاريخية الفلسطينية وصوغها، حيث خسر الفلسطينيون جرّاء تدمير جامعاتهم وأرشيفهم مخطوطات تعود إلى قرون خلت، وموارد قيّمة لفهم تطوّر غزة وتاريخها على الصعيد الثقافي. وقد لحقت أضرار فادحة بالتُّحَف والكنوز الأثرية، منها مجموعة فخارية من الحقبة البيزنطية ومقبرة رومانية عُثر عليها حديثاً تحتوي على توابيت نادرة مصنوعة من مادّة الرصاص، ولكن الأثر الرمزي لهذا الدمار الواسع مهمٌّ بالدرجة نفسها، حيث استهدف جيش كيان الاحتلال الصهيوني مساجد وكنائس قديمة تُعتبَر رموزاً

ذات أهمية تاريخية ودينية على السواء. تتجاوز هذه المواقع الطابع المادي، فهي تختزن الإيمان والتقاليد، وتحافظ على الإرث المعماري المحلي وتجسّد التاريخ الطويل للتعايش بين الأديان في غزة.

يصبّ هذا الدمار المادي والرمزي على السواء في مصلحة أجندة سياسية أوسع نطاقاً تتمثّل في طمس الهوية العربية الفلسطينية والذاكرة الجماعية، وهو ما يندرج في إطار الإبادة الثقافية تماماً، والتي تعتبر أحد أهم مكوّنات الإطار الأوسع للإبادة. فالقضاء على المظاهر الثقافية والأدبية الغنيّة في غزة هو في حد ذاته عمل من أعمال التجريد من الإنسانية، ومرحلة أساسية في الإبادة، بما يصبّ في إطار الأمثلة الأكثر شيوعاً التي ظهرت خلال الحرب، مثل نعت السياسيين "الإسرائيليين" للمدنيين الفلسطينيين بأنهم "حيوانات بشرية". وقد سلطت الدعوى التي رفعتها جنوب إفريقيا أخيراً أمام محكمة العدل الدولية ضد نظام الاحتلال الصهيوني بموجب اتفاقية جنيف الضوء على دمار "الذاكرة والسجلات الرسمية للفلسطينيين في غزة"، بالإضافة إلى "ذكريات الأفراد وتاريخهم ومستقبلهم".

ولم تقتصر محاولات الكيان المغتصب المجرم لطمس الهوية الثقافية لغزة على تدمير المباني الأثرية وهدم المراكز الثقافية، إذ امتد الأمر إلى اغتيال المثقفين الفلسطينيين بالقطاع، بشكلٍ متعمد، وقد استشهد ما لا يقل عن 28 فناناً وكاتباً وأكاديمياً مثل رفعت العرير وسفيان تايه، وشام أبو عبيد وليلى عبد الفتاح الأطرش، بالإضافة إلى الاضطهاد الذي تتعرض له الثقافة العربية الفلسطينية والمؤيدة لفلسطين في العالم بهدف خلق معادل للإبادة في غزة.

فالثقافة العربية الفلسطينية تتعرض اليوم لخطر الإبادة، وقدرتها على المقاومة لا تقل أهميةً عن قدرة الفدائيين في كتائب فصائل المقاومة الفلسطينية والشعب العربي الفلسطيني على صناعة أسطورة الصمود في غزة.

وقد أثار مقطع فيديو لفتاة كندية تتهم فيه الحكومة الكندية بممارسة «الإبادة الثقافية» بحق الكنديين من أصول فلسطينية، ضجة على مواقع التواصل الاجتماعي، حيث ظهرت الشابة الكندية وهي تشرح كيف أجبرت الحكومة الكندية جدتها على حذف كلمة «فلسطين» من خانة مكان الميلاد في جواز سفرها، وترك المساحة خاوية، وحتى في حال تجديد جواز السفر إلكترونياً، فلا تتضمن قائمة البلدان الموجودة في «مكان المولد» اختيار «فلسطين»، حيث يعكس هذا التوجه الكندي الانحياز الغربي السافر لكيان الاحتلال، مع هجوم منسق على الثقافة الفلسطينية وبما يشكل محاولة مفضوحة لمحق الهوية الفلسطينية، وكل ما يترتب عليها من أبعاد متعلقة بالثقافة والهوية.

ولم يقتصر دور الولايات المتحدة الأمريكية والغرب الإمبريالي على الشراكة والدعم العسكري والسياسي والاقتصادي لكيان الاحتلال الصهيوني في إجرامه السافر على غزة، بل امتد دورهم إلى حد ملاحقة المثقفين والكتّاب والفنانين، واعتقالهم وتهديدهم بالقتل، لمجرد تغريدات أو منشورات داعمة للقضية الفلسطينية ومنددة بالعدوان الصهيوني الإمبريالي على غزة سواء أكان فلسطينياً أو أوروبياً أو مكسيكياً أو كندياً أو أمريكياً، بالإضافة إلى تعرض الطلاب الفلسطينيين في الجامعات

الأمريكية والأوروبية لشتى أنواع الاضطهاد وصولاً إلى القتل، ويُدفع بعض رؤساء الجامعات إلى الاستقالة، كأنَّ هناك قراراً اتخذ بسحق الفلسطينيين وإخراسهم.

فقد تعلم قادة وساسة كيان الاحتلال الصهيوني الغاصب وحلفاؤهم الغربيون الدرس جيداً، فإذا أردت أن تبيد شعباً أو تمحوه، عليك أن تدمر ثقافته وتمحوها تمهيداً لتهميشه بشكل نهائي.

وبالتالي خلاصة القول إن الثقافة العربية الفلسطينية تتعرض اليوم لخطر الإبادة، وأن الصوت العربي الفلسطيني يجب أن يتم إخراسه.

وهذه معركة كبرى يخوضونها باستخدام جميع أنواع الأسلحة المتوفرة، من تهمة "اللاسامية" إلى تحويل الرهاب من الإسلام إلى فلسطينو- فوبيا، وصولاً إلى الكشف عن العنصرية التي اختبأت طويلاً في كلمات المساواة وحقوق الإنسان، مع ممارسات الغرب الإمبريالي الداعم لحكومة كيان الاحتلال الصهيوني، والتي تضم غلاة اليمينيين والمتدينين والقتلة والسفاحين المتوحشين الصهاينة الذين يسعون لتوحيش الفلسطينيين عبر إخراسهم وسحق ثقافتهم.

هذه هي المعركة التي علينا أن لا نستهين بها، فمعركة الثقافة هي أحد أوجه معركة الوجود، وهي معركة الثقافة العربية بأسرها وليست معركة الفلسطينيين وحدهم.

و قد قام المشروع الصهيوني تاريخياً على محاولة سلب الذاكرة العربية الفلسطينية من خلال سرقة تراثنا وآثارنا وسلب جزء كبير منها لصالح الرواية التلمودية الصهيونية المزعومة، والتي لم تثبتها كل إجراءات التطبيع بنسخه القديمة والجديدة (اتفاقيات أبراهام) ومحاولات التضليل والفبركة من خلال السيطرة على وسائل الإعلام بكل أنواعها والحفريات الأثرية في فلسطين المحتلة بشكل عام وفي مدينة القدس بشكل خاص، لذلك يسعى كيان الاحتلال الصهيوني الغاصب إلى محو الذاكرة العربية الفلسطينية واستبدالها بذاكرة جديدة، وما لم تستطع أن تسرقه من آثار وتراث يتم هدمه.

وما زال النضال مستمراً في فلسطين العربية المحتلة وخارجها كمعركة بقاء ووجود.

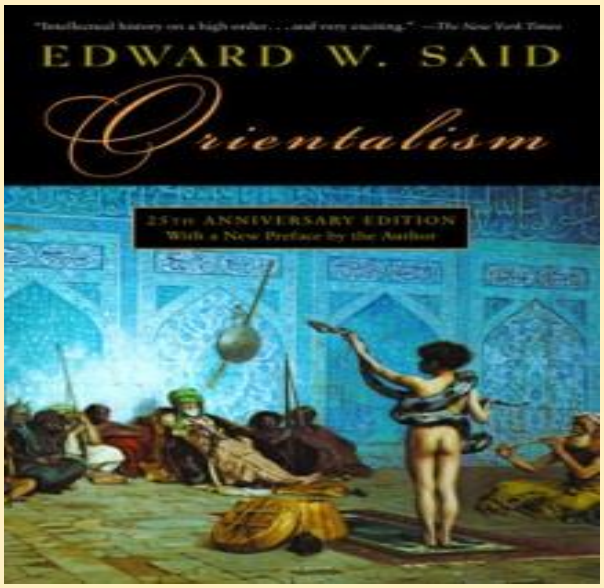

إدوارد سعيد: جزرٌ في زمن المد الثوري

فارس سعادة

نجح إدوارد سعيد في إعادة إنتاج الجدل القائم حول ماهية الدراسات الغربية معرفياً، والتي تناولت الشرق الواسع الذي يضم أغلب وأهم الدول والحضارات والديانات والفكر في الصين والهند وبلاد فارس والوطن العربي وصولاً إلى المغرب العربي، والذي سمي بالاستشراق، أو علم الاستشراق. فقد كان الإنتاج الاستشراقي بمجمله

خزان المعرفة والتاريخ لشعوب كثيرة ومختلفة، وأصبح بمثابة البنية التحتية التي بنيت عليها مختلف الأفكار حول الشرق شعباً وجغرافيا، بل وأكثر فقد شكل الاستشراق مصنعاً للهويات القومية والثقافية والدينية خلال القرن العشرين. فهو بساط الريح الذي سهل على الغرب وأدواته تشكيل هذا "الشرق" الخيالي وبناء دولٍ مختلفة وظفت كقواعد عسكرية مركزية "إقليمية" وأطراف تابعة لهذا الغرب المتوحش الذي ببساطة حوّل مئات الملايين من البشر إلى حقل تجارب ودمى له ينفذون ما يجول في العقل الغربي بحسب تاريخ مسيحي يهودي، ومن ثم متصهين.

عاد الجدل الكبير حول ماهية الاستشراق بعد نشر الكتاب الظاهرة لسعيد في العام 1978 "الاستشراق" بغلافه الشهير الغاوي! وقد سبقت هذا الكتاب عدة مقالات لسعيد حول الاستشراق بشكل غير مباشر، أهمها مقاله الشهير "The Arab Portrayed"، ومن ثم تبعه كتابي "المسألة الفلسطينية" و"تغطية الإسلام". هذه المجموعة من الكتب ساهمت في تشكيل تيار "معادٍ" للغرب المعرفي، وقد أدت، فيما أدت إليه، إلى تشكيل تيارٍ واسعٍ وبابٍ جديدٍ من الدراسات تحت اسم "دراسات ما بعد الكولونيالية" الذي أسهم في ظهور عدة تفريعات مختلفة في شتى أنواع العلوم والدراسات الإنسانية تحديداً للخروج من عباءة الغرب معرفياً، لا منهجياً، لكنه خروج سياسي ثقافي، وإن كان أغلب تلك التيارات لم يخرج من بيئته الأكاديمية المهادنة بشكلٍ أو بآخر!

خرجت في بدايات القرن العشرين، خلال بداية المنتصف الأول من القرن العشرين تحديداً، عدة أصوات غربية وعربية وغيرها تتحدث عن موضوع الاستشراق، ولكنها لم تكن مجددة ومركزة كالأفكار التي وردت في كتاب إدوارد سعيد بغض النظر عن مدى الخلاف أو الاتفاق حول سعيد ذاته. ففي النهاية استطاع الرجل إنتاج الجديد في المعرفة وطرق باباً جديداً كالشاعر العربي الذي ينجح في طرق باب لم يُطرق في الشعر العربي من قبل، وهو إن حدث فسيصبح هذا الشاعر رب عصره في الشعر عند كثر! سيقول كثر إن خلفية سعيد الثقافية والتاريخية وجذوره وبيئته ساهمت في بناء عقله وفكره وما إلى ذلك، وهذا صحيح، لكنه في النهاية أحد رجالات المعرفة بغض النظر عن مشكلة المكان والهوية التي ملكته حتى موته مطلع هذا القرن. ونحن في مكان الأخذ والرد والدفاع عن عروبتنا وتاريخنا ومستقبلنا، وبالتالي لا يمكننا القول بثورية سعيد بل يمكن القول بأن ما أنتجه قد وظف منذ البداية في وجه التيارات الثورية بشكل غير مباشر من خلال فتح مساحة كبيرة لتصالح الغرب مع نفسه وتاريخه وتقديم التبريرات من خلال نقده لممارسته التاريخية ضد شعوب الأرض. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن القول بأن سعيد نفسه مثل الغرب لا العرب في الكثير من أطروحاته، فهو لم يخرج من عباءة الغرب بشكل ثوري حقيقي، بل على العكس وفر مساحة لم يوفرها له، على سبيل المثال، فرانتز فانون!

قفز إدوارد سعيد إلى المجال السياسي قفزاً بعد هزيمة العرب في الحرب العربية الصهيونية عام 1967، والتي أثرت فيه أيما تأثير وحولته إلى المثقف العام، بعد أن كان المثقف النخبوي الأرستقراطي الذي "انهزم" مع هذه الهزيمة إلى صفوف الجماهير العربية والطلاب العرب في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم إلى صفوف م.ت.ف أو منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت من الدهاء والمكر والتكتيك كي تلتقط سعيد وتمسك بأسنانها العرفاتية بكل ما ينتمي لسعيد وثواره "النخب".

لا أحد من أصدقاء سعيد ومعارفه ودارسيه، يختلف بأن الخلفية السياسية لسعيد هشة وركيكة، فهو الطالب المتفوق، صاحب الثقافة الغربية، لبيب الأدب الإنجليزي، محب الموسيقى النخبوية الغربية، ناقد الفن والفنون، القارئ الانتقائي، فنان الردود

القوية والنقدية التي أسقطت عرش برنارد لويس في المناظرة الشهيرة، أستاذ الجندب الأقرع عزمي بشارة والداعية الأول لفكرة "إسرائيل لمواطنيها كافةً"، ومؤيد "التواصل" الثقافي مع نخبة الكيان ومثقفيه وغيرهم من أصحاب المواقف السياسية المعادية للوجود العربي في فلسطين. لكنْ، على أية حال، كما قال الجميع، حتى سعيد نفسه، "سعيد جديد على السياسة"، ولم يكن يقصد أن يطبع! ولكن هل كل هذا يفيدنا نحن كعرب؟ وهل يفيد القضية المركزية فلسطين؟

نجح سعيد في هدم عرش الاستشراق، وأنزله مكانته تحت ضربات نقدٍ قويٍ ولاذع بكل صراحة، وقد فتح أبواب جهنم على المستشرقين من الناحية المعرفية والأكاديمية، فقد أصبح المستشرق الغربي يخجل، بل ويقلق، من نعته بلقب مستشرق. لكن سعيد هدم في ذراعه اليمنى وبدأ بالبناء في يده اليسرى ما يسمى مناهضة الصهيونية والإمبريالية بشكل جديد وبأدوات معرفية، بل وسياسية جديدة، تحت مسميات أخلاقية وإنسانية ومظلومية "المحرقة"، وغيرها من أبواب مقبولة للمناهضة في الغرب. فمن هدم عرش الاستشراق بشكل كبير لم يعترف بأن ملخص ما قاله وكتبه في كتبه العديدة بشأن الغرب وكيفية السيطرة، بل حتى خلق وتخيل وتقسيم الشعوب الأخرى في ما سماه الغرب "الشرق"، هو مبدأ مبني على السيطرة المبنية أساساً على القوة والسيطرة أو "Hegemony"، بحسب الفيلسوف الثوري أنطونيو غرامشي، والذي أنتج مصطلح الهيمنة بشكله الحقيقي الذي يعكس الهيمنة الكولونيالية للغرب على الغرب نفسه، ومن ثم على باقي بقاع الأرض.

تعمد سعيد إغفال مبدأ القوة والسيطرة الذي بنى الغرب عليها سيطرته، وذلك من منطلقه الثقافي في تحليل الهيمنة الغربية، لا المنطلق الاقتصادي السياسي بحسب ماركس مثلاً، وبالتالي، وبالنظر إلى طرح سعيد حول ضرورة مناهضة الهيمنة الغربية في شتى المجالات والاتجاهات، فإن القوة هي أساس سيطرة الغرب وقدرته على مركزة المعرفة تحت جلبابه الأحمر منطقياً. ولا يمكن مناهضة تلك القوة إلا بقوة مضادة عسكرياً وثقافياً وسياسياً، وعبر خطاب معاكس تماماً يحمل في

كل سطر من سطوره إظهار القوة المضادة التي تنبع من "الشرق". ولا يهمنا هنا سوى الشرق العربي، أي الوطن العربي بجغرافيته الممتدة من الشرق إلى الغرب، من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي. وإن كان النقد الذي وجه لسعيد يتفرع في جوانب مختلفة منها ما هو شخصي، ومنها ما هو معرفي، ومنها ما هو سياسي، فإن اعتذارات سعيد المباشرة وغير المباشرة عن بعض الممارسات العملية والمعرفية تسقط سعيد من قمة الجبل الثوري والمشتبك إلى صفوف المثقف النخبوي المهادن، فلم يكن اعتذار سعيد عن رميه الحجارة في جنوب لبنان هو الاعتذار الأهم، بل يمكننا النظر في ما كتبه سعيد في نهاية الطبعة التي نشرت عام 2003 من كتاب الاستشراق، والذي قال فيما قال فيه أنه لم يكن يقصد أن يعمم صفة السوء على الغرب بشكل عام وأنه ليس معادياً للغرب بكليته...إلخ. وأضاف أنه يأسف لأن بعض "الأصوليين" فهموا كتابه وأفكاره بأنها معادية للغرب بكليته "الثقافية والمعرفية والسياسية". لا أدري كيف استطاع سعيد أن يعتذر للغرب عما سماه "سوء فهم أفكاره"، وهذا الغرب ذاته الذي كان في هذه الأثناء "2003" يقصف بغداد وينهب متاحفها وآثارها وتاريخها؟

ذهب سعيد أبعد من ذلك في مساواته للدولة العراقية والولايات المتحدة الأمريكية إبان غزو العراق الهمجي عام 2003، وهذه المساواة، ومهاجمته الدولة العراقية، قد يرجع في الحقيقة إلى كره سعيد للقوميين عموماً وللقومية العربية بشكل خاص. وربما كانت هذه المواقف، ومنها اعتذاراته الكثيرة، وتبريراته الكثيرة "للتطرف"، هي محاولة ليبرالية لسعيد لإنصاف "الإنتاج المعرفي للغرب"، أو العقل الغربي بشكل أو آخر، بما أنه شخصياً غربي الثقافة والنشأة، وربما كان سعيد عربياً ولكن واقع سعيد غربيٌ وماضيه غربيٌ في مجمله، فهو إدوارد الذي درس في أعرق جامعات الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية، وهو الذي كتب باللغة الإنجليزية بكل إتقان، عاشق الموسيقى الكلاسيكية والناقد القوي للأدب والفن الغربي بشكل رئيسي، إذاً لا يمكن إدراج الاعتذارات المتكررة لسعيد إلا تحت مظلة المثقف الغربي الإنسانوي الحداثي! أو لنعترف ونصرخ عالياً بأن إدوارد سعيد قدم طرحاً سياسياً مخترقاً وخيانياً، بل هو نفسه مطبع وخائن لقضيته!

تذكروا وصيته الأخيرة التي عنونها بـ"النزعة الإنسانية كآخر متراس لنا ضد البربرية". ليس غريباً هذا العنوان الإنسانوي على سعيد، فهو الذي صرح وكتب بأن هدفه من الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني هدف إنساني فقط لا غير، وهو الذي كافح من أجل إظهار مظلومية الشعب اليهودي في أوروبا، إدوارد سعيد أحد أكبر منتقدي المناضل والمفكر الفرنسي جارودي الذي قدم الغالي والرخيص لأجل أفكاره المناهضة للغرب والصهيونية. كيف لنا إذن أن نعتبر سعيد أحد منابر الثورة؟ كيف يمكن لثوري أن يستخدم سعيد في خطاباته الثورة أو المناهضة للإمبريالية؟ كيف لنا أن نجلب سعيد من قبره الرخامي لتحليل الواقع العربي ما بعد ربيع أمريكا في بلاد العرب؟ وكيف لنا أن نعيد روح سعيد "الثورية" لتحليل "طوفان الأقصى" والحراك الشعبي العالمي ضد الكيان ومن يقف معه؟

في الحقيقة، وبكل جرأة، يمكن القول بأن سعيد ساقط سياسياً بل وأنتج بشكل غير مباشر تياراً معادياً للمقاومة والثورة في فلسطين وخارجها من خلال تحليلاته ومواقفه "الإنسانية"، والتي وجب أن تكون قومية صرفة، أو على الأقل وطنية فلسطينية بشكلها البراغماتي الضيق في مصلحة شعبه. وهنا يمكن النظر إلى تلاميذ وأتباع إدوار سعيد في الهند، على سبيل المثال، وكيف شكلوا تيارات تفكيك ثقافي مشبوهة، من أمثال هومي بهابها وغاياتري سبيفاك وغيرهم. إن مناهضة الإمبريالية وإنتاج خطاب مناهض للغرب، ومضاد للخطاب الاستشراقي بتفرعاته، لا يتم إلا عندما ننحو نحو الطبيب الثوري فرانتز فانون الذي صدر العنف كطريق رئيسي للمناهضة والمقاومة ضد الكولونيالية والظلم والسيطرة الغربية، فالعنف وحده قادر على إنتاج الاستقلال الكامل وتحرير هذه الشعوب من سجون التخلف.

ففي أوج الثورة الفلسطينية ظهر سعيد كطرف فلسطيني وأداة يمكن من خلالها مخاطبة الغرب الرسمي والأكاديمي باسم "الثورة". فقد شكل سعيد الأداة المطلوبة عرفاتياً للوصول للولايات المتحدة الأمريكية من رأسها، وفعلاً فقد كان أداة لا غير للأسف من الناحية السياسية، والتي لو قدر لسعيد أن يعي حقيقة الصراع لربما كان سعيد في مكان مختلف، ولم يكن ليمثل جزراً في زمن المد الثوري.

لكن هل يمكن استخدام كتابات سعيد وأفكاره كمنطلق لخطاب مناهض للاستعمار؟ بالرغم من كل ما ذكرناه، فإن هذا السؤال لم يطرح كثيراً لأن "عرش" سعيد الفكري نُقد معرفياً وثقافياً ومنهجياً وتاريخياً من العرب والعجم، ولكن لا نرى كُثر قد تحدثوا عن المنطلق الثوري الذي يجب أن تعكسه أفكار سعيد حول الغرب! ومن هنا يمكن النظر إلى كتابات سعيد كجزء مكون للأسس التي من خلالها يمكن مراجعة الاستشراق بهدف الرد عليه وهدم عرشه وكشف ماهيته الحقيقية. ومن ناحية مختلفة أيضاً يمكن استخدام بعض أفكاره التي أصبحت مسلمات في دراسات التركة الكولونيالية في الشرق في إنتاج خطاب ثوري مناهض للغرب وأفكاره اتجاهنا كعرب تحديداً، نعم خطاب ثوري أولاً، فالمناهضة بلا ثورية هي مهادنة لا تنتج الجديد بل تعيد إنتاج الهيمنة الغربية ولا تعمل على تفكيكها بشكل عملي حقيقي ملموس سياسياً في وطننا الممزق. ببساطة، يمكن استخدام استنتاجات وتفسيرات سعيد للاستشراق وعوالمه المختلفة لدك عرش الغرب معرفياً ووضعه في مكانه الحقيقي، وهو موقع العداء للأمة العربية، وهذا الغرب الرسمي يسيطر ليس فقط على المعرفة في منطقتنا لكنه مسيطر حتى على عقول مواطنيه، والذين وبكل صراحة رأينا موقفهم الإيجابي والثوري حقيقةً اتجاه الإبادة الجماعية التي تحدث في غزة.

انتقد الاستشراق من قبل كثر من المفكرين العرب أهمهم أنور عبد الملك في ستينيات القرن الماضي وعبد الله العروي ومحمد البهي وغيرهم، ولكن كما ذكرنا فقد كان سعيد الأب الناقد لهذا الاستشراق وعبر لغتهم ومناهجهم وفي عقر دارهم، وبالتالي برز كالعراب الجديد لهذه الأطروحات مع الاعتراف بأن نقده بشكل لاذع وقوي مما أدى إلى بروزه كمثقف عالمي وناقد عالمي وصاحب مدرسة جديدة ولدت العداوة له بالمناسبة، وفي نفس الوقت ولدت له الشهرة على المستوى الوطني فلسطينياً والقومي عربياً. لكنْ، للأسف، لم يخرج سعيد من عباءة الغرب، إن على المستوى الثقافي، أو على المستوى السياسي، فبالرغم من خطاب سعيد المناهض للإمبريالية فقد كان من الكارهين للناصرية على سبيل المثال، ورافضاً "للعنف الثوري" في فلسطين، وحاول كثيراً مد جسور السلام بين الشعب العربي و"الشعب اليهودي"، وكان من المذكرين دائماً بـ"مظلومية الشعب اليهودي"، فقد كانت "المحرقة" لسعيد حدثاً ملوثاً للإنسانية بشكل كبير، ولكن لربما نسي التذكير بأن المحرقة المزعومة لم تكن سوى نتاج غربي محض إن حدثت أم لم تحدث، فالسردية التي خلقت هذه "المحرقة" هي سردية يهودية صهيونية غربية لا علاقة لنا بها لا من قريب ولا من بعيد، وبالرغم من هذه الحقيقة فقد استخدم سعيد هذه السردية ليخلق لنفسه خلفية إنسانية اتجاه اليهود في فلسطين وخارجها.

في الحقيقة لا يمكن فهم عالمية سعيد وشهرته وفتح أبواب أكبر المراكز الأكاديمية والمحطات التلفازية إلا من باب أنه جزء في كل إمبريالي، ربما من غير أن يقصد، لكنه وبشكل واضح وظف كأداة تنفيس غربياً وتنفيس لنا، نحن العرب و"الشرقيين". فبعد سعيد عن العنف أمر يتنافى مع أطروحاته. فهو يعترف بأن الغرب عنيف وقاتل ومجرم، ولكنه يرفض العنف المقابل! وبالرغم من إن جميع كتابات وأفكار سعيد تصب في زوايا السلام والهدنة والتصالح والرد بالكلمة والمنطق فقد عاد سعيد للجمهور خلال "طوفان الأقصى" العنيف! عاد لنا من خلال المثقف المخصي فكرياً والمنبطح لوسواس قهري اسمه "إنسانية". كيف يتجرأ البعض على جلب أفكار سعيد والتنظير "ثورياً" حول طوفان الصواريخ، إذ لا يمكن تفسير هذه

الظاهرة "استجلاب سعيد" إلا من زاوية الفقر الفكري للمثقف العربي. فالطوفان لا يجلب سوى العنف والمقاومة والتحرير، وسعيد فضل الموسيقى وجمع "الفلسطيني والصهيوني" في فرقة واحدة ليطرب على وقع موسيقى "السلام" فالموسيقى في رأي سعيد بديل للعنف.

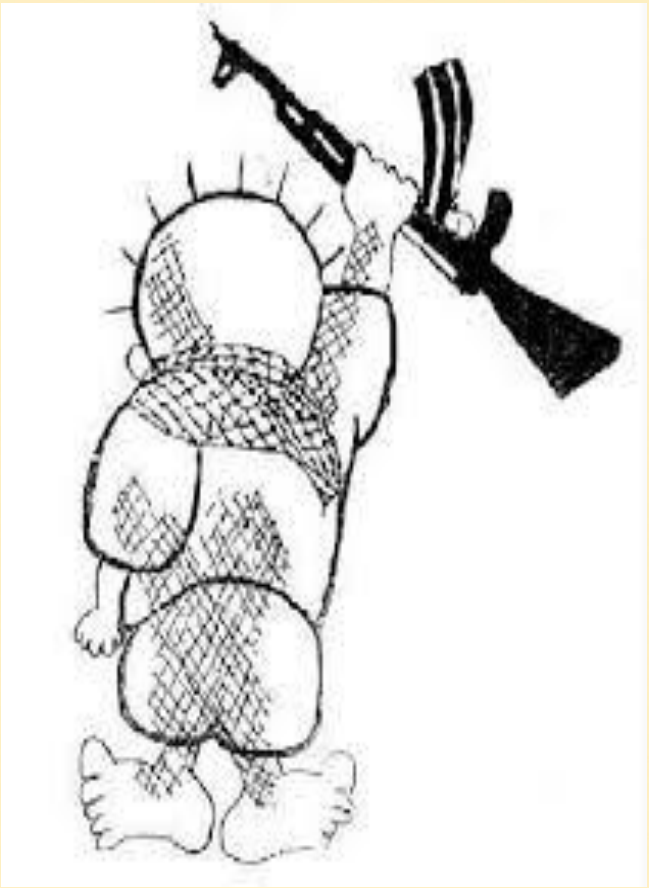

خلاصة القول تتجلى في الفعل الثوري الذي انتهجه كثر من مثقفي ونخب الوطن العربي والشعوب المستقلة في إفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا، فالمقاومة ومناهضة الإمبريالية قائمة على أساسٍ صلب هو حق الشعوب في الحرية والاستقلال الذي أثبتت التجارب التاريخية بأنه لا يؤخذ إلا بالقوة والعنف الثوري المضاد. ومن هنا يأتي الحديث حول المعرفة والثقافة كتحصيل حاصل للثورة والمقاومة، وهي في الحقيقة تسير جنباً إلى جنب بجانب هذا العنف الثوري الذي لربما يسميه الغرب بالإرهاب إلا أنه إرهاب للعدو وإرهاب في وجه القتل والظلم، فالقاتل لا يخاف ويرتدع إلا بإرهابه بالقوة والعنف.
مدرسة إدوارد سعيد شكلت منعطفاً معرفياً وسياسياً جديداً يمكن من خلاله إعادة دراسة تاريخ الشعوب والحضارات، ولكنها بنيت على أسس ضعيفة لا تملك الأفق لكي تنتج الخطابات الثورية المطلوبة لتحرير هذه الشعوب وعلى رأسها الشعب العربي، فكيف لنا أن نحرر عقولنا من لوثات المستشرقين ونحن نخضع تحت حراب عساكرهم؟ كيف لنا أن ننجد غزة من غير فوهات البنادق؟ وكيف لنا أن نطرح القضية الفلسطينية ثورياً على أساس "مظلومية اليهود في المحرقة"، وضرورة التعايش معهم في "دولة واحدة"؟!

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

بلقنة الولايات المتحدة: خيار استراتيجي للدول المناهضة للإمبريالية الأمريكية

إبراهيم حرشاوي

نشرت جامعة لانتشو الصينية في أواخر سنة 2020، في موقعها الإلكتروني، تقريراً مفصلاً عن سياسية ازدواجية المعايير التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكية بخصوص الحركات الانفصالية بعنوان Between inside and outside, the Double Standard of the U.S. on Counter-Secessionism . سلّط ذلك التقرير الضوء على كيفية استغلال الإدارة الأمريكية النزعات الانفصالية في الدول المستقلة تحت يافطة "حقوق الإنسان" "وحق تقرير المصير"، في حين تتعامل بصرامة مع أي توجه سياسي داخلي يميل إلى الانفصال، بالإضافة إلى دعم الدول الأطلسية التي تواجه مشاريع انفصالية.

من بين المواضيع التي تناولها التقرير، الدور الأمريكي في دعم النزعات الانفصالية في الصين، وتحديداً في شينجيانغ وتايوان والتيبت وهونغ كونغ، حيث يندرج هذا الدعم ضمن استراتيجية احتواء الصين التي تتبناها الولايات المتحدة بغرض فتح الطريق نحو إضعافها وتفكيكها على طريقة يوغوسلافيا والعراق.

ما من شك في أن أهم موضوع تناوله التقرير المذكور هو خلفية موقف الحكومة المركزية الأمريكية في القرن التاسع عشر إزاء أعظم حركة انفصالية شهدتها الولايات المتحدة منذ تأسيسها، ألا وهي "الولايات الكونفدرالية الأمريكية" المتكوّنة من عدة ولايات جنوبية، وهو الكيان الذي ظهر في الفترة المعروفة بـ"الحرب الأهلية الأمريكية" 1861-1865. يذكر التقرير أنّ حديّة المعركة لم يكن سببها الجوهري إلغاء العبودية، بل كان الدافع الرئيسي للسلطة المركزية هو الحفاظ عن وحدة الولايات المتحدة مهما كلف ذلك من ثمن، علماً أنّ عدد الضحايا من المقاتلين الأمريكيين وصل إلى حوالي 620.000 قتيل.

ومع أن التقريرالصيني لم يعبر عن فكرة صد سياسة "فرق تسد" الإمبريالية الأمريكية بخطة مشابهة عبر تغذية التيارات الانفصالية في الولايات المتحدة الأمريكية، يبقى تخوف انتقال الصين إلى مثل ذلك الخيار من بين السيناريوهات التي تأخذها دوائر القرار الأمريكية بلا ريب في الحسبان. وقد صرح العقيد المتقاعد بالقوات المسلحة الصينية، والبروفيسور بجامعة الدفاع الوطني، "ليو مينغفو"، أنّ بلاده لا تزعم استغلال أي حالة انفصالية بالولايات المتحدة، مؤكداً أنّ في حالة وقوع أي انفصال في الولايات المتحدة ستمتنع الصين عن التعامل مع الجهة المنفصلة، ناهيك عن مدها بالدعم العسكري.

ومع ذلك، فإنّ الموقف الصيني يتجلى في التحريض الإعلامي الخجول. ولم يرتق تفاعل الصين إلى المستوى الذي قد يتوقعه البعض انطلاقاً من مواقفها الداعمة لحركة الأفارقة الأمريكيين في منتصف القرن الماضي وتأثر الأخيرة بمبادئ الماوية.

أما روسيا فتبدو أكثر جرأة في الترحيب بالأزمات والقضايا الانفصالية التي تشهدها الولايات المتحدة بين الفينة والأخرى. فمثلاً في حالة ولاية تكساس، تداولت وسائل إعلام دولية موقفاً للرئيس الروسي السابق ديميتري ميدفيف قال فيه إنه مستعد لدعم استقلال ولاية تكساس في حالة حدوثه. وثمة تصريح آخر يصب في نفس الاتجاه للنائب الروسي سيرجي ميرونوف. ومن الصعب التسليم أن مثل هذه التصريحات تدور فقط في فلك الخطاب الروسي المناهض لأمريكا، بل ثمة مؤشرات واضحة تعكس التحدي الروسي لوحدة الولايات المتحدة.

بالنسبة للحركات الانفصالية في تكساس وكاليفورنيا، يلاحظ أن الاهتمام الروسي بدعمهما سياسياً ليس بجديد، وأن روسيا أخذت خطوة ملموسة عن طريق مشاركة وفود من الحركة الانفصالية في تكساس وكاليفورنيا في مؤتمر الحركة الروسية المناهضة للعولمة الذي أقيم في موسكو سنة 2016. وفي شرحهما لأهداف مشاركتهما، قال لويس مارينيلي، مسؤول حملة " نعم لاستقلال كاليفورنيا": "نريد لفت الانتباه إلى حملتنا فقط. نحن لا نوقع تحالفاً مع روسيا أو أي شيء من هذا القبيل". أما ممثل "حركة تكساس القومية"، نايت سميث، فقال إنه ممتن لفرصة الترويج لحملته، وكان حريصاً هو الآخر على توضيح أن حضوره لا يعني أنه متحالف مع الكرملين.

ومع أن هذا النوع من التفاعل الروسي مع الحركات الانفصالية الأمريكية يدخل في خانة توظيف القوة الناعمة، إلا أنها قد تتطّور تدريجياً نحو اللجوء إلى القوة الصلبة. فمن منظور جيو-سياسي، يشكل تعزيز التواجد والتفوّق العسكري الروسي على صعيد قدرات التحرّك بمنطقة القطب الشمالي خطراً مباشراً على الأمن القومي الأمريكي، ولا سيما ولاية ألاسكا التي تشهد نشاطاً عسكرياً روسياً متزايداً عند حدودها الغربية بمنطقة مضيق بيرنغ الفاصل بين الولايات المتحدة وروسيا.

ومع بروز الأجندة الوحدوية-التوسعية في ظل قيادة الرئيس فلاديمير بوتين، ليس من المستبعد أن تلجأ القيادة الروسية مستقبلاً إلى طرح قضية " أمريكا الروسية" على جدولها الاستراتيجي بشكل رسمي أو غير رسمي. ويشير مصطلح " أمريكا الروسية" إلى فترة سيطرة الدولة الروسية على مناطق أمريكية من 1732 إلى 1867، حيث كانت تتواجد روسيا في كل من ولاية ألاسكا، وفي أجزاء من ولايات أوريغون وكاليفورنيا وهاواي. وتتمثل أهمية ألاسكا الاقتصادية في اكتِشاف مناجم الذهب في نهاية القرن التاسع عشر بمحاذاة نهر كلوندايك، في حين ساهمت الاكتشافات المعدنية والنفطية منذ منتصف القرن الماضي في ازدهار اقتصاد الولاية بشكل مستمر، وتقدر احتياطات حقل النفط الشاسع في خليج "برودو"، بنحو 13 مليار برميل، كما تشكل المعادن الثمينة والثروة السمكية نسبة رئيسية من صادرات الولاية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

ومع غياب سياسة رسمية لدى روسيا إزاء تبني ألاسكا كأرض روسية مسلوبة، أصدر كبار المسؤولين الروس في سنة 2022 سلسلة من المواقف مفادها أن موسكو قد تنتقل إلى الاهتمام باستعادة هذه الولاية، بعدما هددت الولايات المتحدة باقتياد القيادة الروسية إلى المحكمة الجنائية الدولية. وقد حذر ساعتها رئيس مجلس النواب الروسي، فياتشيسلاف فولودين، من أن الولايات المتحدة يجب أن تتردد عند مصادرة الأصول الروسية في الخارج، وقال أن على الولايات المتحدة أن تتذكر أنه يمكننا استعادة ولاية ألاسكا التي كانت تتبع لروسيا القيصرية حتى القرن الـ19. وأردف في تصريحات نقلتها وسائل إعلام روسية: "أدعو أمريكا لأن تتذكر دائماً أن هناك إقليماً يدعى ألاسكا، كان جزءاً من روسيا، فعندما تحاول التصرف بموارد بلادنا في الخارج، عليها قبل ذلك أن تتذكر أن لدينا أيضاً شيئاً يمكن استعادته".

وبخصوص الحالة الانفصالية داخل ألاسكا، سنجد "حزب استقلال ألاسكا" يلوح بعلم الانفصال والذي أصبح بالمناسبة ثالث أكبر حزب داخل هذه الولاية بعد الحزبين الجمهوري والديموقراطي. وقد أضاء استطلاع للرأي كان أُجريَ في شهر شباط /فبراير المنصرم، تحت إشراف شركة "يوجوف" البريطانية، المشهد الانفصالي داخل ألاسكا بعدما أظهر أنّ حوالي 36% من سكان الولاية يؤيدون فكرة الانفصال عن الولايات المتحدة وإنشاء دولة مستقلة. جعلت هذه النتيجة سكان ألاسكا الأكثر ترشحاً لدعم الانفصال، بما أنّ النتيجة كانت أعلى بكثير من المتوسط الوطني البالغ 23%.

وأُجريَ الاستطلاع على 35307 أشخاص، وأظهر أن الانفصال يعد أكثر شعبية بعد ألاسكا في ولايتي تكساس، 31% ، وكاليفورنيا، 29 %. وتبرز هنا تعقيدات التجزئة في بعض الولايات كحالة كاليفورنيا التي توجد فيها أيضاً طروحات لتقسيمها إلى ولايات أصغر، أو لتوسيعها من خلال توحيدها مع "شبه جزيرة باها كاليفورنيا" بالمكسيك.

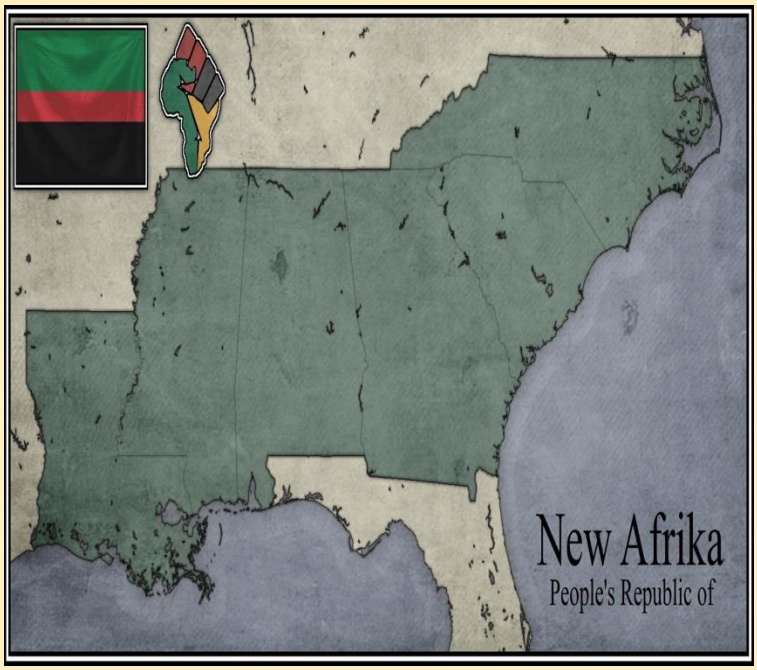

يأخذنا هذا الكلام عن الوضع الانفصالي الحالي بالولايات المتحدة، والذي اختصرناه حتى الآن بطموح بعض الولايات الأمريكية للانفصال، إلى الحركات السياسية التي تنطلق من أسس عرقية أو قومية. انطوت، على سبيل المثال، فكرة "جمهورية إفريقيا الجديدة" التي أطلقتها "مؤسسة مالكوم اكس"(حركة سياسية تلتزم بفكرالشهيد مالكوم اكس) سنة 1968 على خطاب قومي-عرقي يجمع بين تحرر زنوج أمريكا وحق تقرير المصير.

تمت بلورة فكرة إنشاء دولة مستقلة ذات أغلبية زنجية جنوبي شرقي الولايات المتحدة، ضمن سياق سياسي اتسم بعلاقة مضطربة بين المجتمع الإفريقي-الأمريكي والسلطات الأمريكية. وترأس المناضل الزنجي "روبرت فرانكلين ويليامز" هذه الجمهورية الوهمية، حيث ساهم من منفاه في كوبا والصين على تحريض الزنوج على الثورة ضد الدولة الأمريكية. وبالرغم من مرور عدة عقود على هذا المشروع، الذي لم يترجم إلى حراك انفصالي منظم، ما زالت فكرة إنشاء

دولة خاصة بالأفارقة الأمريكيين تعتمل عند بعض القادة التاريخين للسود الأمريكيين كزعيم منظمة "الأمة الإسلامية" لويس فَرَقان.

وبالتوازي مع الحالة الإفريقية-الأمريكية، تأتي الأفكار الانفصالية المتداولة في أوساط الهنود الحمر. أعاد في هذا المضمار مشروع "جمهورية لاكوتا" سنة 2007 الذي تزعمه "روسل مينس"، العضو المؤسس لـ"حركة الهنود الأمريكيين" في أواخر الستينيات، قضية الهنود الحمر إلى حد ما إلى الواجهة. فهو مقترح يرمي إلى إنشاء دولة مستقلة لقبائل "لاكوتا" بموطنهم الأصلي الذي يشمل آلاف الأميال المربعة في ولايات داكوتا الشمالية وداكوتا الجنوبية ونبراسكا ووايومينغ ومونتانا. وقد لا يشكل مقترح "جمهورية لاكوتا" خطورة داهمة لوحدة الولايات المتحدة في الوقت الراهن، لكنه يعبر في جميع الأحوال عن توجه قومي مؤثر، وهو توجه قابل للتطور إذا تم تفعيله من قبل الفاعلين في هذه الشريحة من السكان الأصليين.

لنترك الهنود الحمر، ولننتقل إلى النعرة الانفصالية لدى البيض. سنجد أنفسنا هنا أمام مواقف عنصرية أو تاريخية تحكم طبيعة المشاريع الانفصالية المقترحة من طرف هذا المكوّن المهيمن على هياكل الدولة الأمريكية منذ تأسيسها. فنموذج حركة "عصبة الجنوب"، والتي أنشئت سنة 1994 على يد المؤرخ الأمريكي "ميخائيل هيل"، يسجد البعد التاريخي بإعادة إحياء الذاكرة الوطنية لـ "الولايات الكونفدرالية الأمريكية" من جهة، ومن جهة أخرى يمثل خطاب الحركة الجانب العنصري المنسجمة مع ذهنية التفوّق.

وتعتقد "عصبة الجنوب" أن من تسميهم "شعب الجنوب" لهم الحق في الانفصال عن الولايات المتحدة، وأنهم "ينبغي عليهم التخلص من القمع الإمبريالي للسلطة المركزية". تسعى هذه العصبة إلى إنشاء كونفدرالية جنوبية تضم دولاً مستقلة ذات سيادة. وتصف منشورات العصبة الترويج لمشروع الكونفدرالية الجنوبية بأنه يشكل جزءاً من توعية "شعب الجنوب" بأن لديه هوية خاصة به.

لنضف إلى الحركات القومية والإثنية حالتي هاواي وبويرتوريكو، مع ظهور حركات وطنية فيهما تقول إن الولايات المتحدة تمثل قوة احتلال غير شرعية. إن قضية استقلال ولاية هاواي مرتبطة بموضوع الإطاحة بالأسرة المالكة قبل ما يزيد على مئة عام. وتطالب الحركة الملكية، التي تعتبر واحدة من عدة جماعات وطنية، بحل ولاية هاواي الحالية وإعادة الأرض، أي الجزر البالغ عددها 132 وأصول البنوك، إلى السكان الأصليين.

أما بويرتوريكو التي تسيطر عليها الولايات المتحدة منذ انتهاء الحرب الأمريكية-الإسبانية سنة 1898، فتتميّز عن هاواي بوضعها القانوني. وباعتبارها منطقة تتمتع بالحكم الذاتي، يكون وضعها تلقائياً أدنى من الولايات عندما يتعلق الأمر بالتمويل

المركزي والتمثيل النيابي. وتجدر الإشارة إلى تجربة الكفاح المسلح في بويرتوريكو، والتي كانت تجربة نشيطة تحت مظلة منظمات "حاملو المناجل" و"القوات المسلحة للتحرير الوطني" المعروفة بتنفيذها أكثر من 100 هجومٍ في الولايات المتحدة بين عامي 1974 و1983.

في الختام، لقد نظرنا إلى التباينات القائمة بين السلطات المركزية الأمريكية وبين قوى انفصالية من مشارب مختلفة من خلال الادعاء أن الولايات المتحدة قابلة للتفكيك كباقي الدول. لذلك، قد يؤدي أي احتدام لهذه التناقضات إلى زيادة احتمالية ارتفاع جرعة الدعم الخارجي من خندق مناهضي الإمبريالية الأمريكية. ويبقى السؤال المطروح لدى الكثير من المراقبين: هل ستصلنا على المدى القريب أو البعيد مشاهد ديستوبية حيّة على شاشات التلفاز ومنصات التواصل الاجتماعي كتلك التي عرضها المخرج البريطاني أليكس غارلاند في فيلمه الأخير "الحرب الأهلية"؟ (مقتل الرئيس الأمريكي وانفصال تكساس وكاليفورنيا وفلوريدا)

المراجع:

- موسكو لواشنطن: تذكروا ألاسكا.. فقد نستعيدها:

موسكو لواشنطن: تذكروا ألاسكا.. فقد نستعيدها(alarabiya.net) !

- تمارا برو، هل تدعم الصين القوميين في تكساس؟: هل تدعم الصين القوميين في تكساس؟ | الميادين (almayadeen.net)

- د.إبراهيم علّوش تمرد ولاية تكساس: هل تتفكك الولايات المتحدة الأميركية؟ | الميادين(almayadeen.net)

-Between inside and outside, the Double Standard of the U.S. on Counter-Secessionism: 20201110.pdf (china.cn)

-Texas, California Separatists Attend Kremlin-Funded Conference: Texas, California Separatists Attend Kremlin-Funded Conference - ABC News (go.com)

-NATO allies wake up to Russian supremacy in the Arctic: Russia has more Arctic military bases than NATO - why it matters (reuters.com)

- Christina Lin, On Texas secession, Syrian partition and imploding nation-states: On Texas Secession, Syrian Partition and Imploding Nation-States (ethz.ch)

-Newsweek, Alaska Secession Calls Grow as More Than a Third Want State to Leave US: Alaska Secession Calls Grow as More Than a Third Want State to Leave US (newsweek.com)

CONTROVERSIES-

-Louis Farrakhan calls for separate state for Black Americans, says that's 'what God wants': Louis Farrakhan calls for separate state for Black Americans, says that's 'what God wants' | Fox News

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

العروبة والمسيحية والعرب المسيحيون: الصلات الأولى (الجزء 1)

إبراهيم علوش

عند تناول العناصر التاريخية التي تربط العروبة والمسيحية، يجب أن نميز بين أمرين اثنين:

أ – طبيعة العلاقة بين الظاهرتين على مستوى الفكر والمفاهيم. فهل هناك علاقة بينهما، كما توجد علاقة بين العروبة والإسلام مثلاً؟ ولو بصورةٍ أقوى أو أضعف؟ وكيف؟

ب – طبيعة العلاقة بين العرب والعرب المسيحيين كبشر، كهوية، وكدائرتي انتماء اجتماعيتين-سياسيتين. فهل يُخرِج الانتماء إلى الدائرة المسيحية عقائدياً المنتمين إليها من عروبتهم؟ وهل يُخرِج الانتماء إلى الدائرة العروبية المسيحيين من مسيحييتهم، كما زعم الانعزاليون في لبنان مثلاً؟

لا بد من الإشارة، في البداية، إلى ضرورة تعريف ما نتحدث عنه، وأننا يجب أن نميز بين المسيحية المشرقية، كما تبلورت في بلادنا قبل الإسلام، من جهة، وبين المسيحية كإطار عالمي، تحول إلى مكونٍ ثقافيٍ غربيٍ خصوصاً.

إن ما نسعى إلى استكشافه، إذاً، هو العلاقة بين العروبة والعرب من جهة، وبين المسيحية المشرقية والعرب المسيحيين تحديداً من جهةٍ أخرى، للأسباب التالية:

أ - أن العلاقة بين العروبة والمسيحية المشرقية قبل الإسلام هي علاقة وطيدة، كما سنظهر فيما سيأتي.

ب – أن المسيحية المشرقية، ومركزيها التاريخيين في إنطاكيا والإسكندرية، دخلت في علاقة صراع عقائدي وإقصاء متبادل، كثيراً ما بلغت مبالغ دموية عنفية استطالت زمنياً، مع مركزي المسيحية الغربية التاريخيين في القسطنطينية وروما.

ج – أن العرب المسيحيين ساهموا بقوة في إعادة إحياء الحس القومي العروبي في عصر النهضة العربية الحديثة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مع التنبيه من الانجراف إلى تأييد تهمة الإسلام السياسي وغيره بأن الحركة القومية العربية الحديثة هي نتاج "مؤامرة مسيحية على الإسلام"، كما سيأتي أيضاً في الجزء الثاني من هذه المادة.

د – أن وضعية العرب المسيحيين في المجتمع العربي، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، كانت محكومة بصورةٍ مباشرة بوضعية العرب، بكل مكوناتهم، إزاء الأمم الأخرى غير العربية، إذ كان العرب المسيحيون يصعدون إلى ذرى التألق والمجد في عصور النهضة العربية، وكانت أحوالهم تنحدر إلى الحضيض في عصور الانحطاط التي يميل فيها ميزان القوى ضد الأمة العربية، وخصوصاً بعد سيطرة الأعاجم على الخلافة، وصولاً إلى الاحتلال العثماني، حتى رثاثة زماننا العربي المعاصر. وتمثل هذه العلاقة أحد القوانين العامة للتاريخ العربي منذ نشأت المسيحية المشرقية، والتي اتخذت منذ البداية طابعاً اندماجياً وحدوياً.

هـ - أن الكتلة الأساسية للعرب المسيحيين ومثقفيهم ومفكريهم وزعمائهم وقفت ضد الاحتلالات الأجنبية للوطن العربي منذ الرومان واليونان حتى غزوات الفرنجة وصولاً إلى الاستعمار الأوروبي الحديث والغزو اليهودي لفلسطين، وأن ظاهرة المثقف المسيحي المتغرب، والمترافقة مع ظاهرة هجرة أو تهجير المسيحيين من وطنهم التاريخي، هي ظاهرة نتجت من عوامل طرد وجذب اشتغل فيها الغرب الجماعي على تحويل العرب المسيحيين من مواطني أمة واحدة إلى "أقلية طائفية" منفصلة عن هويتها القومية تحتاج "الحماية" ويمكن توظيفها سياسياً في مواجهة الأغلبية، أسوةً بأي هوية "أقلوية" أخرى، حقيقية أو مفتعلة، في زماننا العربي الحديث والمعاصر.

العرب المسيحيون ليسوا أقلية

لكن العرب المسيحيين تحديداً ليسوا أقلية، بل أهل الأرض العربية منذ ما قبل الإسلام. وكان العرب المسيحيون غالبيات في مواضع كثيرةٍ منها، وفي مواضع أخرى كان الوثنيون هم الأغلبية. ففي بلاد الشام ومصر مثلاً كانت الغالبية الساحقة مسيحية، وكذلك في شمالي العراق، وشمالي المغرب العربي المطل على البحر المتوسط، وجنوب غربي الجزيرة العربية، ولا سيما نجران، التي كانت كانت محافظة يمنية تاريخياً، وتقع الآن ضمن السعودية، والتي يزعم بعض الكتاب أن المسيحية بقيت منتشرة فيها حتى القرن التاسع الميلادي، أو الثالث الهجري (بحسب Goddard, Hugh (2000). A History of Christian-Muslim Relations. New Amsterdam Books).

قصة يوسف الحِميَري ومسيحيي نجران

انتشرت المسيحية بكثافة مثلاً بين عرب جنوب شبه الجزيرة انطلاقاً من جنوبها الغربي، في حين انتشرت اليهودية بين الحميريين، وإن بصورةٍ أقل بكثير، في جنوبها الشرقي، وتحول الطرفان إلى أداة في يد قوى الهيمنة الخارجية، الفرس يدعمون اليهود، والأحباش، وكلاء البيزنطيين، يدعمون المسيحيين. وتذكر المصادر السريانية والعربية قصة المذابح التي ارتكبها الملك يوسف ذو نواس الحميري، عام 523 للميلاد، في مسيحيي نجران واليمن عموماً، بعد أن زاد الإقبال على اعتناق المسيحية، أي قبل ولادة النبي العربي محمد (ص) عام 571 للميلاد ببضعة عقود فحسب.

وتذكر تلك المصادر أن يوسف الحِميَري، تهود وكان ابن جارية يهودية تزوجها أبو يوسف بعد أسرها من نصيبين السورية، فأنجبت ذا نواس الذي أصبح ملكاً على حِميَر عام 522 م. شن يوسف حملة على مسيحيي اليمن في العام التالي، وخصوصاً في نجران، حيث قتل ما بين 11500 و13000 من مسيحييها، وسبا ما بين 9500 و11000 منهم، بحسب المرجع، واشتهر بحفر أخاديد طويلة في نجران جعل فيها نيراناً مضطرمة، فمن أصر على مسيحيته منهم كان يُلقى فيها، وتروي مصادر شتى أنه ارتكب فظائع أخرى في مسيحيي المُخا ومأرِب وحضرمَوت في اليمن الحالية.

ويرى عدد من مفسري القرآن أن ما جاء في سورة البروج في القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود (قُتِل أصحاب الأخدود. النارِ ذات الوقود. إذ هم عليها قعودٌ. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) أنه يتصل بحرق نصارى نجران، وبأنه يتضمن بالتالي إدانة واضحة وتهديداً ووعيداً بحرق من أحرقوا المؤمنين في الأخدود، أي أن من فعلوا ذلك كفار. وإن صح هذا التأويل، ولا توجد واقعة أخدود تاريخية أخرى يمكن تفسير هذه الآيات بها بحسب علمي، فإنه يمثل اصطفافاً قرآنياً واضحاً مع مسيحيي نجران ضد من أحرقوهم بجريرة إيمانهم.

ويرى بعض المفسرين أن ذا نواس شخصية أسطورية، وأنه غير يوسف أسأر، أو يوسف بن شرحبيل، الذي أشرف على عمليات الحرق في الأخدود، وأن من قام بحرق المسيحيين في الأخدود من المجوس، عبدة النار، الديانة الفارسية التي لاقت انتشاراً محدوداً جنوبي الجزيرة العربية، وبالتالي كان عددهم محدوداً، وحتى اليهود لم يشكلوا غالبيةً جنوبي شرقي الجزيرة في اليمن وعُمان آنذاك، بل الوثنيون.

لكن ذلك لا يغير من جوهر الصراع شيئاً، فلا يهم كثيراً الاسم الشخصي الدقيق لمن ارتكب عمليات الحرق. كما أن المجوس، وأغلبهم أتوا من فارس، تحالفوا مع الحميريين، الوثنيين واليهود، ضد المسيحيين والأحباش في سياق صراع فارسي-بيزنطي. لذلك، تجد حتى اليوم من يمجد يوسف الحميري كبطل وطني وقومي عربي قاوم الأحباش، وخذله الفرس ضمن صفقة اتفقوا فيها مع البيزنطيين على أن يكفوا يدهم عن العراق، في مقابل أن يكف الفرس يدهم عن اليمن، فوجد نفسه في الميدان وحيداً واستمر في قتالهم حتى هُزم.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

عروبة الأقوام العربية القديمة والعرب المسيحيون

كان الصراع بين المناذرة والغساسنة، بالمقابل، مرآة ذلك الصراع الفارسي-البيزنطي شمالي الجزيرة العربية، وكان كلاهما عربياً مسيحياً أيضاً. وظلت البادية الشامية العراقية مفتوحةً على شبه الجزيرة العربية تغذي شرقي بلاد الشام وجنوبيها الشرقي بالأخص، وغربي العراق وشماليه، بفيضٍ عربيٍ أدخل العروبة الصريحة في نسيجهما الاجتماعي على مدى قرونٍ قبل تحرير العراق والشام من الاحتلالين الساساني والبيزنطي على أيدي الفاتحين العرب المسلمين.

العرب المسيحيون إذاً عربٌ أصلاء تحول كثيرٌ منهم إلى الإسلام بعد الرسالة المحمدية، وقد مهدت صلتهم العرقية والثقافية والحضارية بالعروبة للفتح الإسلامي. لذلك، نقول إنهم ليسوا بأقلية، ولا هم طارئون على العروبة، بل من صلب أرومتها.

أما إذا خرجنا من إطار شبه الجزيرة العربية، وامتدادها الطبيعي العراقي-السوري، فإن سؤال عروبة العرب المسيحيين هو ذاته عروبة البابليين والآشوريين والآراميين والأقباط والأمازيغ.

وهو سؤالٌ متفجرٌ اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى، لأن ثمة قوى هيمنة خارجية ذات مصلحة في تفكيك الجغرافيا والهوية العربيتين، وفي تصوير العروبة والإسلام خارج الجزيرة العربية بأنهما "احتلالان"، للتعمية عن الاحتلالات الحقيقية العاكفة على اختراع "أقليات" أو فبركة "مظلوميات" توظفها لتكسير الأمة العربية، سياسياً واجتماعياً وثقافياً، وإثارة النعرات في صفوفها.

مسيحيو شمال إفريقيا ومشكلة الأمازيغ

برزت، على هامش ذلك التوجه مؤخراً، ظاهرة إعادة إحياء أعياد وثنية في المغرب العربي مثلاً، تحت عنوان "الأمزغة"، نسبة إلى الأمازيغ، وهي ظاهرة عمل على إنتاجها الاستعمار الفرنسي بصورةٍ منهجية، من خلال ما يسمى "الأكاديمية البربرية" في باريس، والتي اخترعت "العلم الأمازيغي" الذي يجري الترويج له بكثافة، ومن خلال إصدار سياسة "الظهير البربري" في 16 أيار 1930 مثلاً، والتي تعفي المناطق الناطقة بالأمازيغية من تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها وتسمح لهم بتطبيق أحكام شرعتهم الوثنية قبل الإسلام.

يذكر أن فرنسا حكمت الجزائر والمغرب وموريتانيا وتونس عقوداً بصورةٍ متزامنة تقريباً في القرن العشرين، ولم تقم بتوحيدها تحت إدارة استعمارية واحدة، ولم تؤسس منها "دولة أمازيغية" كبرى، بل عملت على تفسيخ كلٍ منها من الداخل، كما عملت على استقطاب الناطقين بالأمازيغية في عمق الأرياف إلى الكنائس المسيحية الغربية.

في جميع الأحوال، إذا كانت المناطق الداخلية من المغرب العربي تسودها الوثنية قبل الإسلام، فإن المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية كانت تسودها الوثنية والشرك أيضاً (إلى جانب الحنيفية والمسيحية، بالإضافة إلى اليهودية التي جلبها نازحون هاربون من فلسطين في زمن الرومان، بحسب بعض الكتاب).

السؤال الكبير هو: لو صحت مزاعم الذين يعدون العروبة والإسلام احتلالاً مزدوجاً لشمالي إفريقيا، كيف نفسر أن بلداناً فتحها المسلمون، وهي قريبة جداً إلى الجزيرة العربية، مثل فارس، أسلمت ولم تتعرب؟ أو أنها، مثل أرمينيا التي فتحها المسلمون مبكراً عام 642 للميلاد، لم تتعرب ولم تسلم؟ في حين أن بلداناً أبعد بكثير جغرافياً عن منطلق الدعوة النبوية في الجزيرة العربية، مثل أقصى المغرب العربي، أسلمت وتعربت؟

قال ابن بطوطة الرحالة الجغرافي العربي الأمازيغي المشهور أن جذور الأمازيغ تعود إلى حِمِيَر جنوبي الجزيرة العربية، ويذهب معه في تأصيل البربر إلى جنوبي الجزيرة العربية كتابٌ وباحثون كبارٌ مثل عثمان صالح سعدي وعلي فهمي الخشيِّم وغيرهما. ويدعم ذلك أيضاً تشابه ما يسميه البعض "الأبجدية الأمازيغية" مع الخط المسند اليمني الذي تكثر نقوشه في اليمن وعُمان وغيرهما.

أما ابن خلدون فقال بأن البربر من الكنعانيين، ولهذا يضطر بعض الانفصاليين الأمازيغ للمعاندة والمكابرة بأن الكنعانيين ليسوا عرباً، أسوةً بما يزعمه دعاة "الفينيقية"، أحد فروع الكنعانية، في لبنان وتونس! وتكمن مأساة هؤلاء وأولئك أن الدلائل على عروبة الكنعانيين القديمة تفيض حتى عن دلائل عروبة الأمازيغ! ولعل تفشي هذه الفرية من سواحل بلاد الشام إلى أقصى المغرب العربي دليلٌ آخرُ، مهما كان سلبياً ومقلوباً على رأسه، على عمق الرابط بينهما... أي على عروبتهما.

العروبة الصريحة والعروبة القديمة

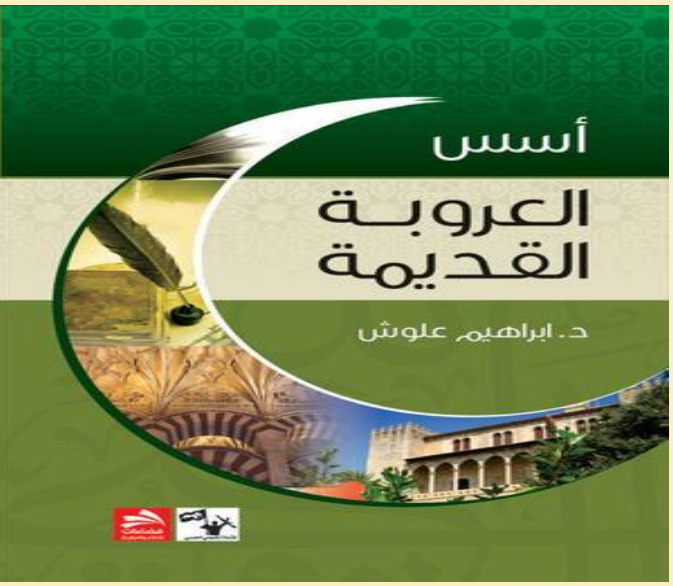

العبرة أن العروبة الصريحة، العدنانية، انتشرت بقوة واستقرت حيثما توجد حاضنة عروبية قديمة فقط، فتلك عروبةٌ كامنةً أطلقها الفتح وبلورها محمولاً على أجنحة الإسلام، ليوحد شمل الحضارات العروبية القديمة في حضارة عربية مسلمة أقوى وأوسع، وحيث لم توجد حاضنة عروبية قديمة، انتشر الإسلام ما عدا في المواضع التي تحكمها حضارات وثقافات منافِسة قوية، غربية أو شرقية، أو بمقدار ما أثبت وجوده مقابل تلك الحضارات. لذلك، وصل الإسلام إلى ماليزيا وأندونيسيا البعيدتين، ولم يصل بالدرجة ذاتها إلى الهند والصين الأقرب جغرافياً إلى شبه الجزيرة العربية منهما.

المهم، يمكن القول إن العرب المسيحيين الذين انحدروا من حضارات عروبية قديمة، مثل الآرامية والقبطية والبربرية، عربٌ أصلاء بمقدار

عروبة تلك الحضارات. وقد جرى تلخيص بعض المراجع الرئيسية التي توثق عروبة تلك الحضارات في كتاب "أسس العروبة القديمة"، إبراهيم علوش، 2013.

استثناء مالطا

ثمة استثناءات طبعاً، ومنها أرخبيل مالطا في البحر الأبيض المتوسط، والتي يتحدث أهلها لهجة عربية كنعانية مؤوربة (نسبةً إلى أوروبا)، مشوبة بالإيطالية والإنكليزية، يربطها البعض باللهجة العربية المنقرضة التي كان يتحدثها أهل صقلية في ظل الحكم العربي الإسلامي، أو بالكنعانيين القدامى، أو بالاثنين معاً.

وتدل الدراسات على أن أكثر من 50% من سكان مالطا يحملون جينات عربية متنوعة المصدر، نسبة معتبرة منها فينيقي. لكن التفسير الحاضر تاريخياً لعدم تعريب مالطا وأسلمتها، بالرغم من انتسابها إلى العروبة القديمة، هو سلسلة غزوات أوروبية كبيرة وعنيفة ومتواصلة عبر القرون على مالطا فرضت اجتثات العربية الصريحة والإسلام منها، وفرضت المسيحية الكاثوليكية فيها، وكان آخر تلك الغزوات احتلالٌ بريطانيٌ دام نحو قرنين، وانتهى عام 1979، وترافق مع هجرة بريطانيين وإيرلنديين كثر إليها (بالنسبة إلى عدد المالطيين الصغير نسبياً)، ولولا ذلك لرأيناها تلهج بالعربية ويكثر فيها المسلمون.

يمكن أن نضيف إلى مالطا هنا جزر الخالدات (المسماة جزر الكناري)، والتي هيمن عليها الإسبان بعد انهيار غرناطة آخر قلاع الأندلس، ففرضوا عليها الأسبنة والكثلكة، مجتثين أي أثر للعروبة والإسلام منها، على رغم أنها تبعد عن الساحل الإسباني 1100 كيلومتر، وعن ساحل موريتانيا والمغرب على المحيط الأطلسي نحو 100 كيلومتر فقط.

لم يكن خياراً بين العروبة المسلِمة وأرومة العروبة القديمة

العبرة من مثالي مالطا وجزر الخالدات السابقين أن تطور الأمم لا يجري في فراغ جغرافي-سياسي أو في مختبرات معقمة، بل في معمعان الصراع مع المشاريع المتغولة، والأمم التي لا تقوى على إثبات وجودها عبر مشروعها القومي الجامع تضمر وتضمحل. ولم يكن الخيار المطروح تاريخياً خياراً بين العروبة الصريحة، عدنانية اللهجة، من جهة، و"القومية الآرامية" في العراق وبلاد الشام، أو "القومية الحِميَرية أو السبئية" في اليمن، أو "القومية القبطية" في وادي النيل، أو "القومية الأمازيغية" في المغرب العربي، من جهةٍ أخرى، بل بين العروبة الصريحة من جهة، وقضم البقاع العربية، ثقافياً وجغرافياً، من طرف قوى الهيمنة الخارجية، الأوروبية أساساً، من جهةٍ أخرى، والتي كانت العروبات القديمة في حالة صراع معها.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

لم تكن مصادفةً أن يحتل الإغريق، ثم الرومان، ثم البيزنطيون، بلاد الشام أو مصر أكثر من ألف عام، من سنة 332 قبل الميلاد حتى 636 للميلاد بالنسبة لبلاد الشام، ومن سنة 332 قبل الميلاد حتى 641 للميلاد بالنسبة لمصر، أو أن يقضي العراق فترةً أطول بقرنٍ تقريباً، تحت الحكم الساساني، سبقها قرنٌ من الحكم الإغريقي، وقرنان من الحكم الفارسي، وأن يقضي المغرب العربي أكثر من 8 قرون تحت الحكم الروماني ثم البيزنطي، تخللها قرنٌ من حكم قبائل الفاندال الجرمانية ومعهم خليط من القوط الجرمانيين Goths و"الألان" Alans الإيرانيين، وهم 80 ألفاً بالعدد مع أسرهم، من دون أن يتحول وطننا العربي إلى "كومنولث بيزنطي"، أو إلى رابطة "لاتينوفونية" (على وزن فرانكوفونية)، أو إلى مقاطعة جرمانية (ذاب الجرمان في شمالي إفريقيا لا العكس).

بعد ألف عام، أو أكثر أو أقل، لم يتحول العراق إذاً، أو بلاد الشام، أو مصر، أو شمالي إفريقيا، إلى اللسان الإغريقي، ولا العراق إلى اللسان الفارسي، ولا اليمن إلى أيٍ منهما، على رغم المحاولات الحثيثة. لذلك، فإن من يفتقدون إلى الوعي التاريخي وحدهم فقط يمكن أن يتوهموا أن فلسطين يمكن أن تصبح يهوديةً بعد عقودٍ قصيرةٍ من احتلالها فحسب.

صحيحٌ أن الأمة العربية صمدت، رغم ألفية أو أكثر أو أقل من الاحتلالات، وحافظت على هويتها، لكن مشروع المقاومة شيء، ومشروع النهوض القومي شيء آخر، إذ يمثل الأول دفاعاً استراتيجياً، والثاني هجوماً استراتيجياً. لذلك، مثلت العروبة القديمة، الآرامية والحِميَرية والقبطية والبربرية، مشروع مقاومة قُطرية، في حين أن الفتح العربي الإسلامي مثّل المشروع الحضاري الذي صنع للعرب مكانةً تليق بهم بين الأمم.

كان ذلك المشروع ذاته مشروع النهوض العربي، والرد العربي التاريخي على الاحتلالات الغربية ومشاريعها لالتهام الأمة العربية ثقافياً وحضارياً، لا قضمها جغرافياً فحسب، بل كان ذلك المشروع، بمصطلحنا المعاصر، مشروع تحرير ووحدة ونهضة قومية، لأن أثره الفعلي، بالنسبة للأمة العربية، كان تحرير الأرض وتوحيدها وصناعة قوة عظمى. وفي القرون الأولى للدعوة الإسلامية، قبل هيمنة الأعاجم على الخلافة، لم يكن ثمة فرق بين عربي ومسلم لدى العدو والصديق، وكان العرب المسيحيون شركاءَ عضويين فيه، ولم يكن العرب اليهود شركاءَ.

مثلت الجزيرة العربية منطقة عازلة، أو مساحة فراغ جغرافي-سياسي نسبياً، بين الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية سمحت للإسلام، أي لمشروع النهوض العربي، أن ينطلق منها، ولو انطلق ذلك المشروع من العراق أو بلاد الشام أو مصر أو المغرب العربي، لقُضي عليه سريعاً بالقوة الغاشمة.

ولو كان الإسلام نزاعاً ضيقاً مع نخبة مكة الفاسدة فحسب، كما يصوره البعض في سردياتهم، لما جرى التأكيد على عروبة النبي محمد (ص)، ولما تكررت "قرآناً عربياً" (11 مرة) في القرآن الكريم، أي أنه مشروعٌ أكبر من مكة بكثير، اكتسح بعروبته الصريحة تحديداً كل ما كان عربياً قديماً قبل الإسلام، فحرره من الهيمنة الأجنبية، ووحده، ونهض به حضارياً، وخلق من حوله فضاءً إسلامياً غيّر وجه موازين القوى دولياً من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب لمصلحة أمة كانت قبله ممزقة ورازحة تحت نير الاحتلالات، ومن هنا خريطة الوطن العربي المعاصر وهويته، وإحدى أهم صلات العروبة بالإسلام.

ربما يقول البعض إنها رؤية قومية عروبية ضيقة لإسلام عالمي الرسالة، ولا أعتذر عن ذلك، لأننا سئمنا من الانقياد لمصالح غيرنا القومية باسم الدين أو الحداثة أو ما بعدها، أو بأي اسم كان، فوق مصالحنا القومية كعرب، ولسنا من يتوجب عليه الاعتذار، وإنما من يوظف الرسائل العالمية "العابرة للقوميات" لتحقيق مشروعه القومي، سواء كان مشروعاً قومياً طورانياً أو مشروعاً ليبرالياً غربياً.

الصراع التاريخي بين المسيحية المشرقية والغربية يمهد الأرضية للإسلام

في السياق التاريخي، هيأ الصراع بين المسيحية المشرقية، المنتشرة بكثافة في الأقطار العربية تحت الاحتلال البيزنطي قبل الإسلام، من الخليج العربي إلى موريتانيا، وبين الكنيسة الغربية بفرعيها، الأناضولي اليوناني والإيطالي اللاتيني، أرضيةً خصبةً لنشوء الإسلام وتمدده بصفته حسماً عقائدياً لذلك الصراع دينياً، وحسماً سياسياً لذلك الصراع قومياً.

تمحور ذلك الخلاف، الديني في ظاهره، والقومي في جوهره، حول طبيعة السيد المسيح، وما إذا كان إلهاً أم بشراً حمل رسالةً إلهيةً. سبق ذلك الخلاف الرسالةُ المحمديةُ بأمدٍ بعيد، وذبح كثيرٌ من العرب المسيحيين على مذبحه على أيدي البيزنطيين، أو أحرقوا أو نكل بهم تنكيلاً. ولا يدرك كثيرون أن سورة الإخلاص (قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد) جاءت في سياق حسمٍ عقائديٍ لصراعٍ قوميٍ ضارٍ عربيٍ-بيزنطيٍ كنسياً، وبأنها كانت مشحونةً سياسياً بشدةٍ في زمانها.

وبرأيي المتواضع، ولست أدعي فقهاً، لكنني قارئٌ للسياق التاريخي، أنها سميت سورة الإخلاص إخلاصاً للشهداء العرب المسيحيين الذين قتلهم البيزنطيون وزبانيتهم، وأعدادهم لا تعد ولا تحصى، لأنهم أصروا على أن عيسى ابن مريم الذي اتبعوه ليس إلهاً ولا ابن إله.

ومن قال إنها سميت سورة الإخلاص، من طرف الفقهاء والمفسرين المسلمين، إخلاصاً لله، فإنهم صدقوا طبعاً، تنزيهاً للمؤمنين عن الشرك بالله، لكنهم لم يقرأوا أسباب نزول الآيات وسياقها السياسي بما يكفي في البيئة العربية الخاضعة للاحتلال البيزنطي التي نزل فيها القرآن. فإن ذلك كان وقتها سياسة مناهضة للبيزنطية مثل القول اليوم: "إن المسجد الأقصى للمسلمين"، إذ إن ذلك ليس ديناً فحسب، بل يمثل بالضرورة سياسةً مناهضة للصهيونية، ومسألة صراع سياسي، وصراع على الرواية التاريخية أو الدينية، يحسم الصراع على هوية الأرض.

التحدي الأريوسي للاهوت البيزنطي السائد

جاء أول تحدٍ لاهوتي حقيقي واجهته الكنيسة الغربية من كاهن ليبي الأصل في مجمع الإسكندرية اسمه آريوس عاش بين 250 و336 للميلاد تقريباً، ويسمى أتباعه "الأريسيون"، ومذهبه "الأريوسية" Arianism. ويقال إن اسم هذا الكاهن عبدالله بن أريس، وإنه ولد شرقي ليبيا، وإنه من أصول فينيقية، وإنه رفض مبدأ الثالوث وألوهية المسيح، مشدداً على التوحيد.

أقصي أريوس بناءً على ذلك، وظهرت صيغٌ مخففة بعد ذلك، سعت لإيجاد نقاط تقاطع مع السلطات الكنيسة المهيمنة تحت عنوان "نصف آريوسية"، لكن جرى تحريمها جميعاً من طرف الكنيسة في القسطنطينية عام 381 للميلاد، كما جرى اجتثاثها اجتثاثاً بين العرب المسيحيين، بعد انتشار المذهب بينهم انتشاراً واسعاً، لكن ليس قبل أن يصل بعض القبائل الجرمانية التي اعتنقته حتى القرن الثامن للميلاد (وليس غريباً أن ينتشر هذا المذهب بين الجرمان في سياق الصراع في الوعاء الأوروبي بين الكتلة اللاتينية والكتلة الجرمانية).

وفي رسالة النبي العربي محمد (ص) إلى هرقل قيصر الروم ورد الآتي: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين".

يرى معظم الفقهاء، كما جاء في صحيح البخاري مثلاً، أو صحيح مسلم، أو مسند أحمد، وغيرها كثير، أن المقصود بالأريسيين هنا هو الزراع والحراثون، أو التبع والضعفاء. وترى قلة قليلة أميل معها أن المقصود بالأريسيين في رسالة النبي محمد (ص) إلى هرقل هو الطائفة الأريسية، وذلك للأسباب التالية:

أ – أن معاجم اللغة العربية، مثل لسان العرب والقاموس المحيط، لا تظهر مثل هذا المعنى لكلمة أريس، ولا تظهر جذراً عربياً أصيلاً لها، بل تظهر عكس معنى الضعفاء والتبع إذا جاءت من الرئاسة والبروز والتبختر، إذا اشتقت من "رئس".

ب - جاءت كلمة "الإرِّيس"، وجمعها أراريس وأرارسة وأراسي، وليس أريسيين، في المعجم الوسيط بمعنى الأكار، أي الذي يتولى زراعة الأرض مقابل حصة من غلتها، وينسبها المعجم إلى مصادر فقهية، أي إلى تفاسير الفقهاء، مع كسر

الهمزة في بداية الكلمة، لا فتحها، وليس من المعقول أن يرتكب النبي محمد (ص) خطأً لغوياً مثل هذا حتى لو افترضنا صحة هذا المعنى.

ج – أن الكلمة ليست شائعة في كلام العرب، ولم أستطع أن أجد لها مثل هذا المعنى في اليونانية والسريانية في محركات البحث (على رغم عدم معرفتي بأي من اللغتين)، بل هي أسماء آلهة في اليونانية، ووجدت "آريس"، بالمدّة، كاسم بنت في السريانية، ويعني "الشخصية الأفضل"، بحسب أحد المراجع، وهناك برج الحمل Aries، والذي يحكمه إله الحرب مارس، وكلها تناقض معنى الضعف.

د – أن تفسير كلمة "الأريسيين" بمعنى الضعفاء والتبع والحراثين يفترض حرص هرقل الشديد عليهم، وأنه كان عطوفاً على الضعفاء، وأن ذلك وترٌ حساسٌ لديه، وهو افتراض يصعب البناء عليه استراتيجياً، ومن الثابت، بحسب المراجع الغربية، أنه أثقل كاهل السوريين بالضرائب، ومن غير المعقول ألا يعرف النبي العربي محمد (ص) والصحابة ذلك.

هـ - أن ردة فعل هرقل على الفتوحات العربية الإسلامية كانت السعي لرأب الصدع بين المذاهب المسيحية المختلفة، من دون أن ينجح في ذلك، لكنه يعد مؤشراً كبيراً على أن هرقل كان مدركاً لمصدر المشكلة سياسياً.

المهم، لم تبقَ طائفة عربية مسيحية، أو تيار لاهوتي، يحمل عنوان الأريوسية رسمياً، وربما تكون الدعوة الأريوسية استمرت بصورةٍ سرية خوفاً من التنكيل والاضطهاد الذي لحق بأتباعها، لكن الأريوسية تركت أثراً عميقاً في بقية التيارات والمذاهب الدينية العربية المسيحية، وبالتالي في جدالاتها الفقهية مع مرجعيتي القسطنطينية وروما الغربيتين، أي لا جدال في أنها تجلت بصورٍ أخرى مخففة في طوائف عربية مسيحية أخرى، كما سنرى في مستهل الجزء الثاني من هذه المادة.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

من تراث الفكر القومي: "ثورية القومية العربية"، عبد الله عبد الدايم، 1960

طالب جميل

تقديم: خلال مرحلة النهوض القومي من القرن الماضي، وفي العام 1960، أثناء قيام دولة الوحدة، "الجمهورية العربية المتحدة"، نشر المفكر القومي الدكتور عبد الله عبد الدائم مادة في مجلة الآداب بعنوان "ثورية القومية العربية" يؤكد من خلالها على أن نجاح فكرة الوحدة المستندة إلى القومية العربية يكون بمدى الإيمان بثوريتها ومدى قدرة الإنسان العربي على التحرر وتفجير طاقاته الإبداعية.

الجمهورية العربية المتحدة
برلمان واحد - نظام ديمقراطي رياسي
رئيس الجمهورية الجديدة يعين الوزراء ويكونون مسئولين أمامه
أمريكا تطلق قمرا يزاحم القمر الروسي في السماء
تولد الجمهورية العربية المتحدة

الدكتور عبد الله عبد الدائم مفكر قومي وباحث ومؤرخ ولد عام 1924 في مدينة حلب السورية، عمل مدرساً وأستاذاً في كلية التربية بجامعة دمشق، ورئيساً لقسم أصول التربية فيها، ووزيراً للإعلام عامي 1962 و 1964 ووزيراً للتربية عام 1966، له عدة مؤلفات تربوية وفكرية وقومية مثل (التربية في البلاد العربية، التربية والعمل العربي المشترك، دروب القومية العربية، الوطن العربي والثورة، القومية العربية والنظام العالمي الجديد، دراسة عن تجربة الوحدة العربية المصرية السورية، دراسة بعنوان فشل العمل الوحدوي ولم يفشل مبدأ الوحدة العربي)، وقد توفي عام 2008.]

الثورة كلمة عريضة، دب إليها كما دب إلى غيرها من الشعارات الذائعة، غموض وقلق، وليس المجال ههنا مجال تحديد معانيها، ومثل هذا المطلب ليس بالمطلب اليسير، إذا أخذنا الكلمة في مدلولها المطلق عارية عن أي زمان ومكان.

وحسبنا أن نسهم في توضيح معالم الفكرة الثورية بعد أن نضعها في إطار زمان معين ومكان معين، أي في إطار الفكرة القومية العربية في مرحلتها الراهنة، ونقدم بين يدي هذا التوضيح المتصل بالفكرة الثورية في القومية العربية بعض الصوى نضعها على الطريق. إذ مهما يكن من أمر المضمون الفكري والفلسفي لكلمة ثورة يظل من اللازم أن تستبين الفوارق بينها وبين فكر تقرن بها غالباً، وتكاد تكون بمثابة التوائم لها. ونعني بهذه الفكرة: المحافظة والإصلاح والتقدم. أما المحافظة فنسبها إلى الثورة نسب تضاد، وهي تذكر في معظم الأحيان كنقيض لها، والبون بينهما على وضوحه بعض الشيء يحتاج في الواقع إلى مزيد من الجلاء في الأذهان، فالفكرة المحافظة كثيراً ما تؤخذ على أنها فكرة تعني استمرار ما هو قائم وبقاء الأوضاع على ما هي عليه، وكثيراً ما يخيل إلى الأذهان أنها لا تحمل بالتالي فكرة معينة ومذهباً ذا حدود وأصول، وأنها لا تعدو أن تقرر قولة ليبان بأن هذا العالم هو أحسن العوالم الممكنة، وأن ليس في الإمكان أبدع مما كان.

والواقع أن الفكرة المحافظة، ولا سيما في عصرنا، وبعد تطور الأفكار الثورية وانتشارها، لم تعد على هذا النحو البدائي وحاولت أن تضمن مفهومها مبادئ معينة بل ثورية من نوع خاص نستطيع أن نسميها ثورية مقلوبة، ولم تعد هذه الفكرة المحافظة تعني ذلك الشكل الأولي منها، شكل التغني بماضٍ زائلٍ والاستمساك العاطفي بعصورٍ خالية لها عندها صفة القداسة. وهي في معظم اتجاهاتها الحديثة تعني شيئاً أوسع من هذا وأصلب عوداً نجده عند ذلكَ الفريق الذي تطلق عليه أحياناً تسمية أخرى هي تسمية "الرجعية"، فالرجعي لا يأسف على الماضي لما له في نفسه من سحر، وإنما يتعلق به لأسباب لا شأن لها بالشعر والخيال: يتعلق به تعلقه بمبدأ أساسي لديه هو أن الطبيعة الإنسانية واحدة غير متغيرة، وأن الإنسان مخلوق لأن يحيا في ظروف محددة، هي تلك الظروف التي يدافع عنها ويطلب العودة إليها لأسباب لا مجال إلى تحليلها بعضها شعوري وبعضها لا شعوري، وهكذا نجد أن الماضي الذي يدعو إليه الرجعي ما هو بالماضي الغائم وما هو مجرد الاستمرار في تقاليد معينة وإنما هو قبل هذا وفوق هذا ماضٍ مشخصٌ ما تزال بعض عناصره قائمة في الحاضر وما يزال، بالتالي من الممكن في نظره لهذا السبب أن نعيده كاملاً. وبتعبير آخر أوضح، يشترك المحافظ مع الثوري في أن كليهما يرى في الحاضر انحرافاً عن المجرى الطبيعي للتاريخ ومغايرة لمستلزمات الطبيعة الإنسانية سوى أن الرجعي يرى خلافاً للثوري أن الطريق المؤدية إلى أصول الطبيعة البشرية وجوهر الإنسان طريق شاقة طويلة مليئة بالمخاطر ولهذا كان لا بد من أجل تغيير المجتمع من نموذج معين معروف سبق أن أثبت قيمته وشأنه في أجيال خالية، وعلينا بالتالي أن نقتنيه من جديد بعد أن ننزع عنه ما فيه من أشياء تجاوزها الزمن وندخل عليه بعض التعديلات التي تتلاءم مع الظروف الجديدة للحياة.

وفي هذه الناحية يلتقي الرجعي مع الثوري ويختلف عنه في آن واحد، فالثوري بدوره يؤمن بما يمكن أن ندعوه "أسطورة الأصول" ونعني بذلك أنه يهدف هو أيضاً إلى أن يعيد الإنسان إلى صفائه الأول وإلى أن يخلص الماضي من الطفيليات التي نمت على هوامشه فغطته وكادت تطحنه بثقلها سوى أنه يفترق عن الرجعي في شيء أساسي هو أنه لا يستمسك بحرفية ماض معين، وإنما ينبش في الماضي أوضاعاً تعبر تعبيراً صادقاً عن الطبيعة الإنسانية في كامل تحققها وعلى نحو ما يفهمها ويود أن يقذف في المستقبل التحقيق الكامل لمثل هذه الأوضاع التي تاهت وضاعت ، فالثوري يؤمن بالديمومة إيمانه بالصيرورة، وهو إذ يتجه بكامل قواه نحو المستقبل يحاول أن يجد تبريراً لهذا المستقبل في الماضي من دون أن يقيد هذا المستقبل بخطوات الماضي كاملة ومن دون أن يحصر نفسه في إطار ماض محدد لا يتجاوزه. إنه يبحث خلال تاريخ الإنسان عن الصفحات التي تجلت فيها أصالته ويود أن يكمل هذه الصفحات مستلهماً روحها لا شكلها.

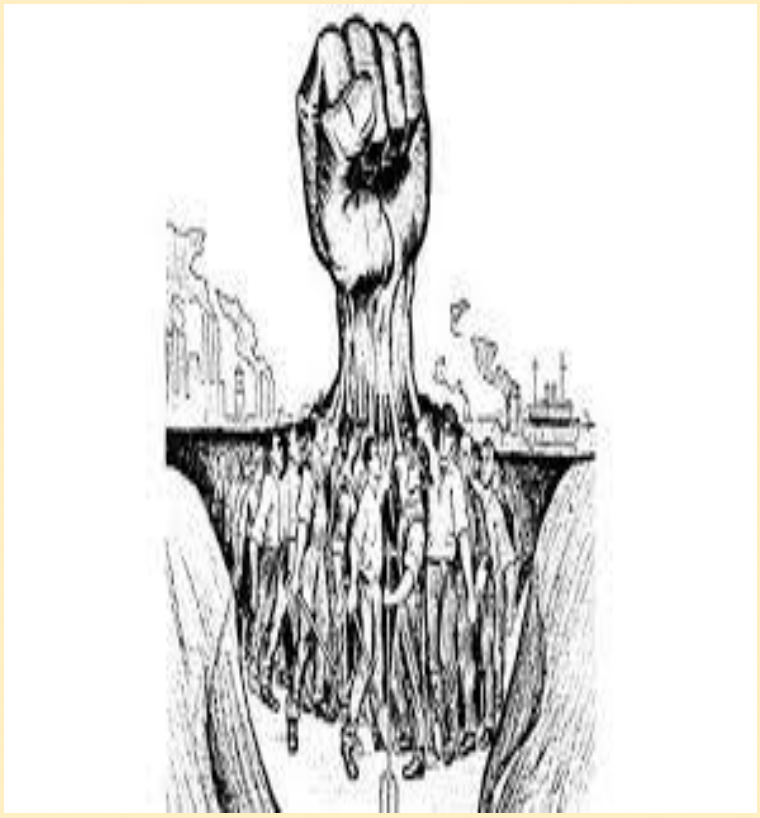

تلك لمحة عابرة عن أواصر النسب بين الثورة والمحافظة ويستبين الأمر أوضح إن نحن نظرنا في الصلة بين الثورة والتقدم، فعلى حين نجد الرجعي والثوري يشتركان في الوقوف من الحاضر موقفاً سلبياً وفي اعتباره شذوذاً تاريخياً وانحرافاً بالقياس إلى مثل أعلى معين نجد التقدمي يقبل على العكس واقعه وعصره كما هو بكل ما فيه من خصائص لأنه يرى فيه خطوة تقدمية بالقياس إلى ما سبقه، ذلك أنه يرى أن كل ما في التاريخ يخضع لقانون التقدم والتطور الذي لا يغلب، والتطور التاريخي إذ يسيطر عليه هذا القانون عملية لا ردة فيها تسوقنا في تيارها السائر، شئنا أم أبينا، ومن العبث أن نحاول معاندتها، ومقاومتها لا تعدو أن تكون ضرباً من مقاومة نظام الفصول الطبيعية أو تتابع الأجيال البشرية، وعلى حين نجد الرجعي يعتقد أن في وسعه بعد شيء من التعديل، وبعد إجراء بعض التنازلات، أن يعاود مجرى التاريخ وأن يصعد إليه كرة أخرى، ضمن حدود تاريخ معين على أقل تقدير، نجد التقدمي يستسلم لمجرى التاريخ هذا استسلاماً كاملاً. أنه يستلقي فيه ويحمل نفسه في تياره لا كسلاً ولا عجزاً أو إيماناً بقدر محتوم بل إيماناً منه بأنه اكتشف القانون الأكبر الذي يسيطر على مصير الإنسان فما له عنه من محيد. قانون التقدم، قانون تطور وفق خط مستقيم يستوي إلى الأبد، والحق أن فكرة الأبدية واللاتناهي هي المسلمة الأولى في قانون التقدم، ومن هنا كان جوهر التقدم أنه لا يحمل في طياته مستقبلاً معيناً يمكن التنبؤ به، وأنه لا يعبأ برغباتنا ومنازعنا ومثلنا العليا، وأننا نجهل الجهل كله ما عساه يخبئ لنا في مستقبل قريب أو بعيد، أكارثة كونية أم جنة عدن.

من هنا نرى أنه إذا كان الرجعي هو رجل "الأشياء المحددة الثابتة"، فالتقدمي على العكس تماماً متحرر من أي "تثبيت" على شيء، ومن أي "وقفة" عند حدود عصر تاريخي معين، وعلى حين نرى الأول متعلقاً بماض معين، محدد في الزمان، نرى الآخر ينظر إلى أي ماض نظرته إلى شيء مضى وانقضى ولا سبيل على إعادته، وعلى حين نجد الثوري متعلقاً بمستقبل معين واضح المعالم بوجه عام، نلقى التقدمي مؤمناً بلا أدرية مطلقة بالنسبة إلى المستقبل.

على أن حدود المفهوم تستبين عن طريق قرنها بعد هذا بالمفهوم الإصلاحي خاصة، فالمفهوم الإصلاحي أقرب نسباً إلى المفهوم الثوري من المفاهيم السابقة، بل هو المنافس الذي يتلبس به دوماً ويزيف حقيقته، وكثيراً ما نجد المفهوم الثوري يتردى في بعض الأذهان إلى مفهوم الإصلاح فيفقد معالمه الأصيلة ذلك أن فكرة الإصلاح تتفق مع فكرة الثورة في الدعوة إلى مستقبل معين واضح الحدود فيه تقويم للأوضاع وعودة بالإنسان إلى الأصول.

غير أنها تفترق معها افتراقاً بائناً في الأسلوب الذي ترسمه للوصول إلى هذا المستقبل، فهي ترى أن في مقدورنا أن نصل الى المستقبل المنشود، أيا كانت معالمه، عن طريق حركة تطورية إصلاحية نجربها ضمن المجتمع القائم تؤدي إلى تقوية بنيته شيئاً بعد شيء والسير نحو السلامة المرجوة. بينما ترى الفكرة الثورية أن مفاسد الحاضر هي من التداخل والتشابك بحيث لا تجدي فيها الإصلاحات الجزئية ولا بد لتغييرها والانقلاب عليها من ثورة شاملة، ثورة جذرية تتناول الأشياء من قواعدها وتبدأ بالبداية، وبتعبير آخر نستقيه من ميدان الصحة الجسدية ترى الفكرة الإصلاحية أن علاج الامراض الاجتماعية لا يحتاج إلا إلى أدوية عادية طويلة المدى بينما ترى الفكرة أن هذا العلاج في حاجة إلى عملية جراحية، إلى استئصال لأصول الداء وجذوره، إلى التخلص من البؤرة السرطانية.

من خلال هذه الصوى المتفرقة تستبين لنا بعض الشيء أهم ملامح الفكرة الثورية، إنها أولاً فكرة تؤمن بنموذج إنساني معين تحققت بعض جوانبه في الماضي ولا بد من جهد ثوري لتحقيقه كاملاً في المستقبل، وهي ثانياً ترفض حرفية الماضي وعودته في شكله كاملاً ولكنها تؤمن بروح معينة نجد تجليات لها في هذا الماضي ويمكن أن تأخذ في المستقبل شكل تجليات أخرى مبدعة، وهي ثالثاً لا ترى أن تحقيق النموذج الإنساني الذي تهدف إليه يمكن أن يتم عن طريق تطور التاريخ تطوراً عفوياً بل تؤمن بأن لا بد من التدخل في مجرى التاريخ وأن هذا التدخل هو جوهر الإنسان ووجوده، سوى أنها لا تكتفي من هذا التدخل بالإصلاح العابر الجزئي، بل ترى أن بلوغ المثل الأعلى الإنساني لا بد فيه من انقلاب كامل على الحاضر، لا بد فيه من انقلاب تام في المفاهيم والقيم والوسائل.

ولا يعني الانقلاب الكامل على الحاضر والانفصال عنه تجاهله والجنوح إلى عالم خيالي طوبيائي (أي طوباوي)، وإنما يعني على العكس استخدام هذا الحاضر استخداماً جديداً من شأنه أن يعيد تشكيله ويكونه تكويناً مبتكراً سليماً، وبتعبير آخر لا ينظر الثوري إلى الواقع القائم على أنه هو الواقع الإنساني الأصيل وأن له بالتالي صفة الحق الشرعي في البقاء، وإنما ينظر إليه على أنه هو الشيء المنحرف غير السوي وأن قلبه يعني إعادة الأمور الى نصابها ورد الأشياء إلى طبائعها، وبكلمة أخرى أيضاً لا يخاف الثوري من المفاسد القائمة في الحاضر خوفاً يشل إرادته وتفكيره ويجعله يعتقد بأنها هي الشيء الوحيد الممكن، وإنما ينظر إلى المفاسد نظرته إلى "تشكيلات سطحية" دخيلة تزول بيسر إذا حركتها يدٌ من الداخل، يدٌ ثورية تحمل حرارة النظرة الصحيحة.

وإذا أردنا تصويراً آخر للفكرة الثورية قلنا إن هذه الفكرة تؤمن بنوع من الحركة الخلاقة الشاملة التي إذا وجدت غيرت كل شيء، ولا تؤمن بأن بناء الأشياء والمجتمع يمكن أن يكون ذرة ذرة وقطرة قطرة. إنها تعتبر حركة الحياة حركة مبدعة تعمل عن طريق تيار حيوي مبدع يصهر الأشياء نقطة نقطة ورملة رملة أمر يحتاج ما لا يتناهى من السنوات ويقصر عنه عمر التاريخ ولا بد بالتالي في تغيير الأمور من روح تطغى على كل شيء، نظرة تقلب، موقف نفسي من شأنه أن يهب الأشياء القائمة غير شياتها وأن يمنح مواد الواقع غير صفاتها.

ومن هنا ينشأ سوء التفاهم بين الثوري وغير الثوري إذ يتكلم كل منهما لغةً غير لغة الآخر ويبدأ من بدايات مفترقة، فغير الثوري حين يتهم الثوري، كما يقع غالباً، بالخيانة، لا يحاول أن يفهم منطقه من داخله وإنما يسلط عليه منطقاً هو المنطق الذي يريد هذا الثوري أن ينقلب عليه. والخلاف بينهما بالتالي خلاف في الحدس الأصلي، فالحدس الأصلي عند غير

الثوري حدس مستسلم خائف غير مدرك لصفحة الواقع كاملة، ينظر إلى الجزء على أنه الكل، ويعتبر النتائج أسباباً والفروع أصولاً، أما حدس الثوري فحدس جامع شامل ينظر إلى الأمور كلها في سائر مفاصلها وحلقاتها وينبش خيطها الناظم وروحها الرائدة فيثق ويطمئن حين يدرك أن ما يخيف غيره ما هو إلا قشرة سطحية زائلة ونتائج لا أسباب، نتائج لموقف مغلوط من الأشياء ونظرة مقلوبة على الأمور ويؤمن في نهاية الأمر أن هذا البنيان الفاسد متداعٍ من تلقاء نفسه ساعة نبدأ من الجذور وننطلق من موقف إنساني خصيب.

من خلال هذه الأمور كلها يمكن أن نفهم الفكرة الثورية في القومية العربية. إن هذه الفكرة في قلب الواقع وصميمه ولكنها تأبى أن تعترف على الواقع المشبوه لتنصبه في مقام الأصل وأن تترك الأصل واضعة إياه في مستوى الخيال.

وأول ما تقرره في هذا المجال أن واقع العرب الحقيقي لا يثوي في كيانهم الموحد، وهي إذ تقرر ذلك تستند إلى واقع خلاق تؤيده النظرة الشاملة السوية، إنها لا تقول بالوحدة قولها بفكرة خصيبة منتجة ذات مردود عملي قوي فحسب وإنما تقول بالوحدة لأنها ترى بالاستناد إلى التاريخ وإلى واقع الشعور العربي أن التجزئة من نتائج الكيان المريض للأمة العربية، وأن العودة إلى الوحدة تعني تصحيح الأوضاع ورد الأمور إلى نصابها، وهي إذ تقرر ذلك تعيش في صلب الواقع، الواقع الحي كما يظهر للحدس الشامل الكامل لا للنظرة القاصرة العشواء: فالواقع هو الذي يؤكد لها أن القيم الإنسانية الحضارية للأمة العربية كانت يوم وحدتهم. والواقع هو الذي يبين لها أن التجزئة كانت تتكاثر وتسير جنباً إلى جنب مع ضعف الكيان العربي ودخول العوامل المخربة فيه، والواقع هو الذي يحدثهم عن أن القوى النفسية الحقيقة للأمة العربية تنطلق من خلال الأحاسيس العربية المبثوثة في كل عرق، وأن عناصر الإبداع العربي تنتظر كيانها الطبيعي الذي يتحقق فيه كيان الأمة الموحدة والواقع هو الذي يومئ فوق هذا كله إلى ما ينتظر من وحدة العرب من نتائج تتصل بزيادة طاقاتهم الروحية والاقتصادية والعسكرية زيادة ليست مبرر الوحدة من دون شك ولكنها قرينة تدل على أصالة الوحدة واتصال فكرتها اتصالاً حياً بجوهر وجود العرب على الأرض.

على أنه إن كانت فكرة الوحدة العربية هي رأس الأفكار الثورية التي نجدها في القومية العربية، فهذا يعني شيئاً لا ثاني له وهو أنها لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق عقل ثوري وعمل ثوري. إنها إذ تصدر عن حدس ثوري أصيل ينظر إلى الأشياء نظرة فيها تخطٍ للفساد وتجاوزٌ للنظرات الجزئية وذهاب إلى الأصول، لا بد كيما تتحقق فعلاً من أن يكون أسلوب عملها اليومية ونضالها الدائم مستوحىً من مثل هذا الحدس حافظاً له. والمنزلق كما قلنا هين خطير بين الفكرة الثورية والفكرة الإصلاحية. والفكرة الإصلاحية هي التي تنتحل عادة لنفسها صفة الثورية وهي التي تتزيى بزي الثورة فتزيفها وتبعدها عن أصولها وعن حرارتها، وفكرة الوحدة العربية كما قلنا ونقول فكرة إما أن تصدر عن ثورية أصيلة وإما ألا تكون البتة. بل إن انقلابها إلى ضدها لا بد واقع إن هي ظنت أن الوحدة يمكن أن تتم عن طريق مهادنة التجزئة أو عن طريق السير بعقلية التجزئة ضمن الوحدة.

إن العمل للفكرة العربية لكونه عملاً ثورياً لا بد فيه من نضال يومي في سبيل هذه الفكرة ولا بد فيه من نظرة شاملة كاملة تغذي كل سلوك يومي وتطبع كل حركة. وليس أعداء الوحدة الحقيقيون أولئك الذين لا يأخذون بها- فهؤلاء لن يقووا على مغالبة طبائع الأشياء- بل أعداؤها الحقيقيون هم أولئك الذين يأخذون بها من دون أن تغذيهم فكرتها الثورية الحقيقية والذين يتبنون شعاراتها ظاهراً ويعيشون في عقلية التجزئة باطناً، فمثل هؤلاء هم الذين يتيحون لأعداء القومية العربية أن ينقصوا عليها ويفضحوا ثغراتها وما يفضحون في الواقع ثغرات فيها وإنما يفضحون أسلوباً خاطئاً في فهمها أو إنفاذها. ولا يتسع

المجال للحديث عما ينسحب من هذه النظرة إلى ثورية الفكرة العربية من نتائج لا حصر لها تتصل بالوسائل الثورية لبلوغها.

وحسبنا أن نذكر أن الفكرة العربية ما دامت نظرة إلى الإنسان عامة ونظرة إلى الإنسان العربي خاصة لم تعد مجرد أمنية أو مداعبة عواطف بل غدت شيئاً ذا مضمون إيجابي بنّاء من شأنه أن يجعل من هذه الفكرة فكرة خصيبة ترفع مستوى العربي الحضاري والإنساني وتجعله عاملاً من عوامل المدنية في العالم، ولهذا كان المضمون الذي تنادي به الجمهورية العربية المتحدة اليوم حين تجعل هدفها بناء مجتمع اشتراكي ديمقراطي تعاوني مضموناً أساسياً في إعطاء الفكرة العربية كامل معناها وتحميلها تمام ثوريتها، أنه هو القمين بأن يوقظ ملايين الشعب العربي الراكدة التي حالت ظروفها الاقتصادية والاجتماعية السيئة بينها وبين أن تبدع وتعطي، وأنه هو الذي يقدم للإنسانية وثبة حضارية حقة إذ يحرر هذه الملايين من قيود أوضاعها وإذ ينطلق من فكرة أساسية وهي أن الخير والعطاء للأمة العربية وللإنسانية يثويان في هذه الجموع الشعبية الغفيرة المحرومة التي تنتظر من يفك عنها الأغلال لتنطلق وتبدع.

إن ثورية القومية العربية تحمل معناها أولاً وآخراً في قدرتها على أن تحرر الإنسان العربي وتطلق قوى الإبداع لديه. إنها تصور عن مسلمة أولى هي أن التحرير العميق الحق لهذا الإنسان لا يمكن أن يكون إلا ضمن كيان عربي موحد يتحمس له ويستخرج في سبيله كل مدى طاقاته وإمكانياته ويجد ذاته في إطاره.

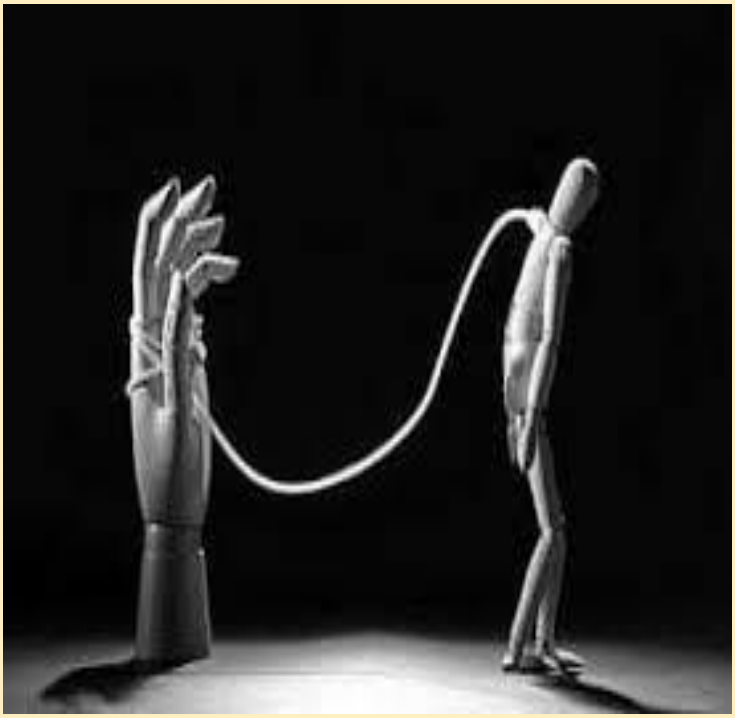

ومعنى هذا بلغة أخرى أن الوحدة هي الإطار السليم لتحقيق مضمونها وأنها وهذا المضمون شيء واحد ولا سبيل إلى فصل أحدهما عن الآخر. وثورية فكرة الوحدة تأتيها من أنها تخرج من ذلك الدور الفاسد المعطل، وقوام هذا الدور الفاسد أو الحلقة المفرغة أن الوحدة لا تتحقق إلا إذا تحرر أبناء الشعب العربي من قيود أوضاعهم الاجتماعية فأصبحوا سادة مصيرهم. إنها تكسر هذا الدور حين تقرر أن التربة الطبيعية لتحرير الشعب العربي المحروم المهمل هي تربة الوحدة وأن انتظار تحرر الشعب العربي ضمن إطار التجزئة مباينة لمنطق الواقع إذ يعني هذا الانتظار تعريض الشعب العربي ضمن التجزئة لعبودية أكبر وقيود داخلية وخارجية أخطر، ولهذا كانت ولادة الجمهورية العربية المتحدة على الشكل الذي جرت عليه عملية ثورية أساسية إذ صدرت عن إيمان بأن الوحدة هي سبيل القضاء على المفاسد والأدوار التي تحول دون قيام الوحدة، وأن التوحيد بحد ذاته عمل مبدع خلاق من شأنه أن يولد طاقة جديدة تقوى على محاربة المفاسد التي لا تقوى عليها التجزئة. وهكذا عزمت الجمهورية العربية المتحدة بخطواتها الجبارة على أن تقضي على أخطار الوحدة ضمن الوحدة وفي قلب الوحدة، ووجدت أن السبيل الثورية الوحيدة للتغلب على ما يحول دون الوحدة هو أن نحققها عن طريق عزم مبدع خلاق ونتابع ضمنها عن طريق مثل هذا العزم الخصيب، القضاء على ما يناقضها.

وقد جاءت المراحل التي تلت ولادة الجمهورية العربية المتحدة مؤكدة لهذه النظرة، فالجمهورية العربية المتحدة تلقى كل يوم آلام هذا المخاض الجديد وتعاني دوماً من آثار التجزئة السابقة وبقايا العقلية الماضية ولكنها تتغلب على هذا كله ضمن كيان الوحدة وتستمد من الوحدة نفسها قوة ثورية ما كانت لتسير لها بدونها، وتقوى أن تصهر ضمن بوتقة الوحدة ما كان عسيراً أن يصهر خارج بوتقتها وهي بعد هذا، بل قبل هذا، حين تنطلق في طريق البناء الاجتماعي والتشييد، تقوي يوماً بعد يوم عوامل الوحدة ومقوماتها وتخلق عناصر قوتها واكتمالها. وبمقدار ما يتحقق لهذه النواة الأولى للوحدة من الاكتمال تجذب إليها أجزاءها الأخرى ويصبح لقاؤها معها لقاء طبيعياً.

إن الفكرة الثورية أساس وجود الإنسان وهي القوة المحركة في كل مجتمع وهي في البلاد العربية خاصة قوام وجود الطليعة الموجهة فيها، ولا بد أن تتلاقى الحركات الثورية التي تعيش في نفوس هذه الطليعة العربية أنى وجدت على أن مسؤولية الجمهورية العربية المتحدة مسؤولية كبرى في هذا اللقاء فهي التي تمنح القوة لهذه الحركات الثورية عن طريق ما تشيعه من تحقيق خصيب للأهداف الثورية ضمن كيان مؤهل أكثر من غيره لتحقيق مثل هذه الأهداف.

وبعد من العسير أن نستنفذ في هذه الصفحات موضوعاً هو موضوع وجود الأمة العربية وقوام كيانها الراهن، وحسبنا أن نبشنا عابرين بعض معالمه تاركين الثورة العربية الكبرى التي نعيشها أن تسطر في الواقع الحي القسمات الكاملة للفكرة الثورية في القومية العربية.

دمشق

قصيدة العدد: أقوال اليمامة – أمل دنقل

"فلما جاءته الوفود ساعية إلى الصلح، قال لهم الأمير سالم: أصالح إذا صالحتِ اليمامة. فقصدت إلى اليمامةِ أمُّها الجليلة ومن معها من نساء سادات القبيلة، فدخلنَ إليها وسلمنَ جميعاً عليها، وقبلت الجليلة بنتها وقالت: أما كفى؟ فقد هلكت رجالُنا وساءت أحوالُنا وماتت فرسانُنا وأبطالُنا، فأجابت اليمامة: أنا لا أصالح ولو لم يبق منا أحد يقدر أن يكافح."

أبي... لا مزيد!
أريد أبي، عند بوابة القصر،
فوق حصان الحقيقة
منتصباً من جديد...

***

ولا أطلب المستحيل، ولكنه العدل:
هل يرث الأرض إلا بنوها؟
هل تتناسى البساتين من سكنوها؟
وهل تتنكر أغصانها للجذور؟
لأن الجذور تهاجر فى الاتجاه المعاكس؟
هل تترنم قيثارة الصمتِ ...
إلا إذا عادت القوس تذرع أوتارها العصبية؟
والصدر... حتى متى يتحملُ أن يحبس القلب
قلبي الذى يشبه الطائر الدموي الشريد
هى الشمس ، تلك التي تطلع الآن...
أم أنها العين – عين القتيل – التى تتأمل شاخصة:
دمه يترسب شيئاً فشيئاً...
ويخضر شيئاً فشيئاً
فتطلع من كل بقعة دم: فم قرمزي
وزهرة شر..
وكفان قابضتان على منجل من حديد؟
هى الشمس؟ أم أنها التاج؟
هذا الذى يتنقل فوق الرؤوس إلى أن يعود
إلى مفرق الفارس العربى الشهيد؟

***

أقول لكم أيها الناس كونوا أناساً!
هي النار، وهي اللسان الذى يتكلم بالحق
إن الجروح يطهرها الكي
والسيف يصقله الكير
والخبز ينضجه الوهج
لا تدخلوا معمدانية الماء
بل معمدانية النار...
كونوا لها الحطب المشتهى والقلوب: الحجارة،
كونوا... إلى أن تعود السماوات زرقاء

والصحراء بتولاً...
تسير عليها النجوم محملة بسلال الورود

***

أقول لكم : لا نهاية للدم
هل في المدينة يضرب بالبوق، ثم يظل الجنود
على سرر النوم؟
هل يرفع الفخ من ساحة الحقل... كي تطمئن العصافير؟
إن الحمام المطوق ليس يقدم بيضته للثعابين
حتى يسود السلام
فكيف أقدم رأس أبي ثمناً؟
من يطالبني أن أقدم رأس أبي ثمناً... لتمر القوافل آمنة؟
وتبيع بسوق دمشق: حريراً من الهند،
أسلحة من بخارى،
وتبتاع من بيت جالا العبيد؟

وعلى إثر مقتل كليب بن ربيعة، ملك العرب، على يد جساس بن مرة، سئلت اليمامة، ماذا تريدين لإنهاء الحرب، فقالت: "أريد أبي حياً"، قالتها اليمامة وسطرت بداية لأشهر حرب عرفتها العرب في الجاهلية في أواخر القرن الخامس للميلاد، أربعون عاماً طويت بعدها دفاتر الحرب وما فيها من أحداث وسير وذكريات، ولكن كان للحاضر رأي آخر. دنس الصهاينة أرض العرب، وقتلوا بدلاً من كليب، ألف كليب، وها هو الوطن الجريح ما زال ينزف، فماذا تريد اليمامة؟ يحكي ديوان (أقوال جديدة عن حرب البسوس) الصادر عام 1983 للشاعر العربي المصري أمل دنقل الكثير، ولعل ما ضمته دفتاه يعد من أشهر قصائد الشعر المعاصر في الرفض والثأر والمقاومة، أقوال اليمامة، مراثي اليمامة، ولا تصالح، حكاية عن حرب بدأت، ولما تنتهِ بعد، وبين سطورها تقول اليمامة: "لا أطلب المستحيل، ولكنه العدل".

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

رسم العدد: نبض القلب

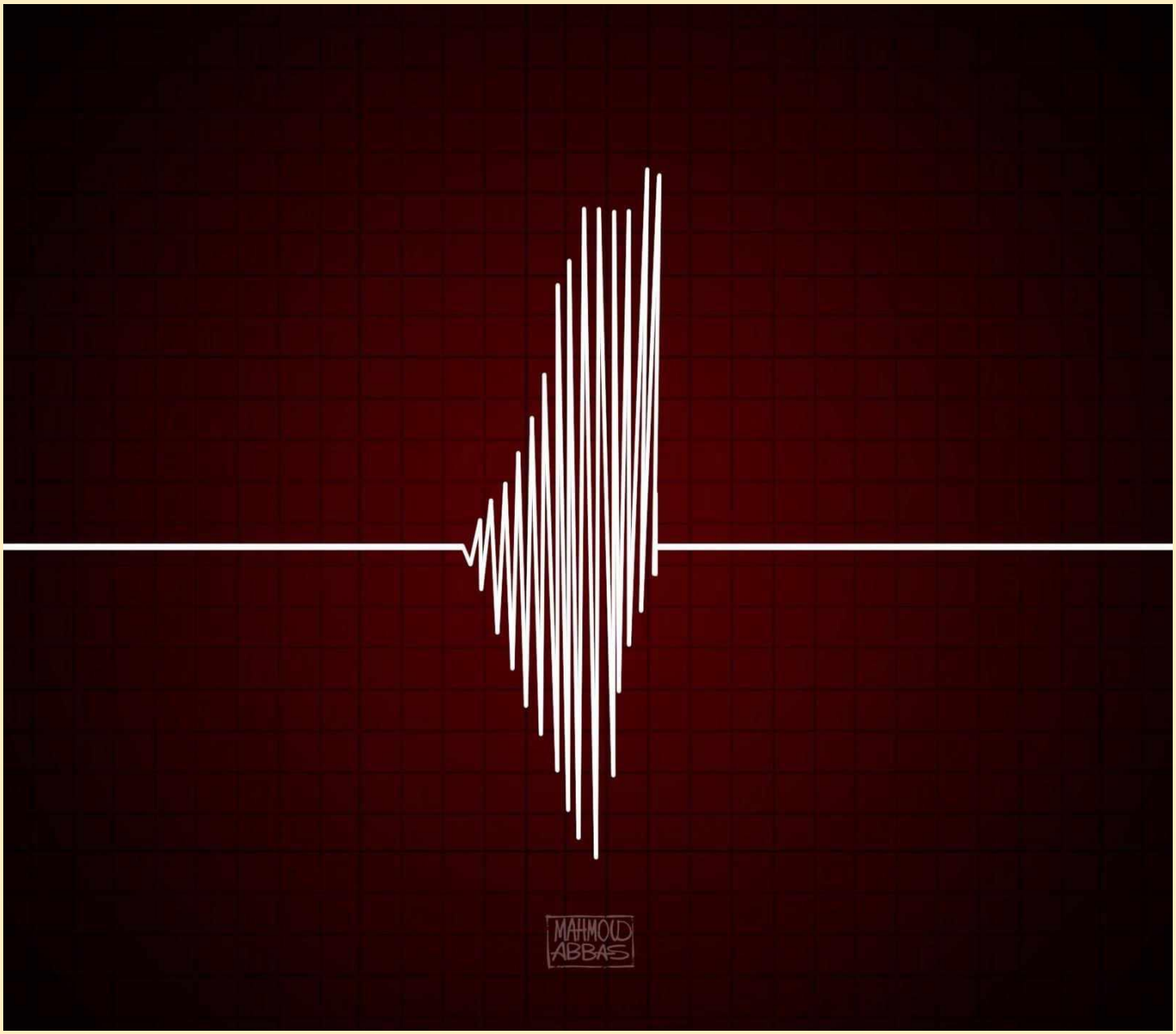

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 93
01 أيار 2024

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي